



مذاهب و شخصیات

من اعلام الاسلام



تألیف
انور الجندی

مرآة اعلام الاسلام

اليوم والامة العربية في خضم معركة
الوحدة والقوة والحرية ، نتطلع الى معالم
البطولة في حياة هذه الصفوة من رجالنا ،
هذه البطولة التي قامت على الايمان
الصادق بالاهداف الرفيعة والمثل العليا
والقيم الانسانية .

أنور الجندي

« رأيت قوما الموت أحب اليهم من الحياة
والتواضع أحب اليهم من الرفع ، ليس
لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، أميرهم
كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم
ولا السيد من العبد ، وإذا حضرت الصلاة
لم يتخلف أحد منهم »

(قالها الجندي المجهول ردا على سؤال المقوقس)

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم :

شغلت نفسى بالدراسات العربية والاسلامية عشر سنين . قرأت خلالها عددا كبيرا من أمهات الكتب القديمة والحديثة والمجددة ، ولقد هدانى ايمانى بعظمة النفس العربية أن أقدم لها نماذج من (أعلام العرب والاسلام) الذين كانوا مثلاً أعلى فى الفكر والحكم والحرب . من الذين مازالوا الى اليوم متأثر تهدي الى الحق والقوة والعدل ، وترسم لنا الطريق الى الغد العظيم المأمول ، الذى تتكشف بشائر فجره ، وتتوالى علامته مشرقه .

ذلك أننا نؤمن بالسبيل الوسط ، لا ننحرف الى مذاهب الشرق أو مذاهب الغرب ، هذا السبيل الذى تتأكد فيه شخصيتنا العربية فى ملامحها القوية الواضحة . هذه الملامح التى تستمد عناصرها الأصيلة من أمجادنا وتراثنا وتاريخنا من ناحية، ومن الحضارة الانسانية فى أرقى عاومها وفنونها واختراعاتها من ناحية أخرى . يمتزج ذلك كله ويتداخل فلا يطفى طرف منه على طرف . ولا يذهب بنا الى محو شخصيتنا بالنوبان فى مادية الحضارة . ولا يتوقف بنا الى حدود ماضينا وحده بتجميد صورتنا . وانما نقف موقف المرونة فى التلقى والمزج والاذابة فى كياننا ، فننتجد دائما . ولا نتوقف أبدا . ونجرب مع تيار التطور شخصية واضحة وقوة فاعلة تؤثر ولا تخرج عن نطاق كيانها الحالى الباقى على الزمن .

ولقد آمنت أيضا بأن الزمن قد دفع الناس الى السرعة ، ولم يعد لدى القارئ من الوقت ما يمكنهم من استيعاب البطولات وهم لذلك يؤثرون المختصرات التى يمكن أن تقدم عصارات مركزة ، حديثة العرض ، سلسلة العبارة ، جيدة الأداء عن البطولات . لذلك أثرت أن أقدم أكبر مجموعة من صور الاعلام بسيطة مركزة ، وفق أحدث أساليب كتابة التراجم وفى ضوء علم النفس .

وقد رأيتنى أقف طويلا عند « البطولات » فى حدود المثل الأعلى . وبهرتنى مواقف رائعة تجلت فيها عظمة الشخصية عندما تحقق نصرا أو تحول تاريخيا أو تدك قديما باليا . أو تمزق ماضيا مهلهلا .

لذلك حاولت أن أرسم لهؤلاء الاعلام صورة نفسية : من أعماق الحياة وغاية رجائى أن أكون قد وفقت فى محاولة دراسة الشخصية العربية فى هذه الصور ، وفق الأسلوب الحديث فى دراسة التراجم وكتابة السير والله الموفق .

« أنور الجندى »

✽ ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه .

عمر بن الخطاب

عن نافع أن رفقة من التجار قدموا المدينة فذهب عمر بن الخطاب وهو خليفة يحرسهم ومعه عبد الرحمن بن عوف فسمع بكاء صبي فتوجه عمر نحو أمه . وقال لها : اتقى الله واحسنى الى صبيك . ثم سمع بكاء مرة ومرة . فلما كان من آخر الليل سمع بكاء فأتى أمه فقال : ويحك . انى لأراك أم سوء . مالى ارى ابنك لا يقر منذ أول الليل؟ قالت : قد اضجره منذ أربع ليال أمر الفطام . قال : ولم ؟ قالت لان عمر لا يفرض من بيت المال الا للطفل الفطيم . قال لها لا تعجلية . فصلى الصبح وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء . فلما سلم قال : يا بؤسا لعمر . كم قتل من اولاد المسلمين . لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فاننا نفرض لكل مولود .

تلك صورة من جوانب شخصية عمر تمثل « اليقظة » وهذه صورة أخرى .

بينما كان عمر بن الخطاب يخطب بالمدينة خطبة الجمعة : التفت من الخطبة ونادى : « يا سارية بن حض ! الجبل الجبل . ومن استرعى الذئب ظلم » . فلم يفهم السامعون مراده ، فلما قضيت الصلاة سألوه على . فقال عمر : أوسمعت ما قلت ؟ لقد وقع فى خاطرى أن المشركين هزموا اخواننا وأنهم يعمرون بجبل فان عدوا اليه قاتلوا من وجده . وان جاوزوه هلكوا ، فخرج منى هذا الكلام . ثم جاء بعد من ميدان القتال من ذكر أنهم سمعوا صوتاً فى تلك الساعة يشبه صوت عمر يقول « يا سارية الجبل » قال فعدلنا اليه ففتح الله علينا .

وهذه تمثل « الالهام » .

مر عمر فى سوق المدينة فرأى اياسا بن سلمة معترضا فى طريق ضيق فخفقه بالدرة ، وقال له : أمط عن الطريق يا بن سلمة .

ثم دار الحول ولقيه فى السوق . فسأله : أردت الحج هذا العام ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . فأخذ بيده وأعطاه ستمائة درهم . وقال يا بن سلمة استعن بهذه واعلم أنها من الخفقة التى خفقتك بها عام أول . قال اياس : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها . فأجابه عمر : انا والله ما نسيتها

وهذه صورة « الوفاء » .

ساوم مرة رجلا على فرس يريد أن يشتريه منه فركبه ليجربه فعثر
الفرس وكسرت ساقه فقال الرجل: خذ فرسك . فأبى الرجل، فطلب منه
عمر أن يختار حكما يتخاصمان أمامه . فاختار صاحب الفرس (شريعا)
فتحاكما إليه فقال : يا أمير المؤمنين : خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت . فأجاب
عمر : وهل القضاء إلا هكذا : سر الى الكوفة قاضيا .

وهذه صورة « العدل » .

قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه :

ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر الا متخفيا . الا عمر بن الخطاب
فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده سهما واختصر
عزته (عصا لها زج كالرمح الصغير) ومضى قبل الكعبة ، والملا من قريش
بفنائها . فطاف بالبيت سبعا متمكنا . ثم أتى المقام فصلى . ثم وقف على
الحلق واحدة واحدة يقول لهم : شأهت الوجوه . لا يرغم الله الا هذه
المعاطس . من أراد أن يشكل أمه أو يوتم ولده أو يرمل زوجه فليلقني وراء
هذا الوادى .

وهذه صورة « الشجاعة » .

ومن هذه الجوانب تبدو صورة عمر : قوية عادلة وفيه يقظة ملهمة .
الشخصية القوية المدلة بقوتها حين تنتقل من صف الى صف ، وهى
تحمل نفس الايمان المكين ، وتندفع فى الطريق الى كل مكان جلست فيه
بالشرك لتجلس فيه بالاسلام .

وهو هو الانسان الممتاز طوال حياته ، صاحب الشخصية الواضحة
القوية التى كانت تقول رأيها فى وضوح ولا تبالى أن تختلف مع الرسول
نفسه . وقد كان عمر مهيبا حتى كان الرسول يهابه ويحترم رأيه .

عندما وقع الرسول عقد الحديبية وقفل عائدا مضى عمر فحاذاه وأخذ
يراجعه ويقول له : يا رسول الله انعطى الدنيا فى ديننا . ولم يسترح حتى
قال له اننى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا .

وروى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه . قال استأذن عمر
على رسول الله وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن .
فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب . فأذن له الرسول فدخل .
والرسول يضحك فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله . قال :
عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندى لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . قال
عمر فأنت يا رسول الله كنت أحق أن تهاب . فقال عمر : أى عدوات
أنفسهن أتهبننى ولا تهبن رسول الله ؟ قلن : نعم . ان فيك غلظة . قال
النبي : يا عمر والذى نفسى بيده : ما لفيك الشيطان قط سالكا فجاء الا
سلك فجاء غيره .

وهو الذى لم يغنه فى الحمر البيان الأول . وطفق يسأل حتى نزل

فيها بيان شاف . وإشار بقتل الأسرى في بدر وخالفه الرسول وأبو بكر .
ونزل القرآن موافقا رايه (١) .

وهكذا كان واضح الشخصية في حياة الرسول يشير عليه ويراجعه
ويطلع رايه ولا يرجع حتى يقتنع . وقال الرسول عنه : « أن الله جعل الحق
على لسان عمر وقلبه » .

وكان الى هذا جرى الرأى فيه عاطفة حادة لا يحب الوسط من
الأمور .

عندما رأى أبا سفيان في معسكر المسلمين ليلة فتح مكة دخل على
الرسول يطلب اليه أن يأذن له بقتله . وكذلك فعل في كل موقف رأى
فيه هجوما على الاسلام أو الرسول .

وبلغ من جرأته أنه عندما جاءت الرسول غمرة الموت دعا بطرس إلى
على المسلمين كتابا قال : ان النبي غلبه الوجد وعندنا كتاب الله .

ولكن اندفاعه ذلك لم يكن يمنعه من أن يخطئ : لما توفي رسول
الله بكى الناس فقام عمر خطيبا في المسجد فقال : لا اسمعن أحدا يقول ان
محمدا قد مات ، ولكنه أرسل الله اليه كما أرسل الى موسى بن عمران .
والله انى لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات . وأقبل
أبو بكر فأسكت عمر وتلا الآية : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله
الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » هنالك لم تحمل عمر رجلاه
وهوى الى الأرض .

ومن قوة شخصيته أنه اعترف بخطئه عندما وقف يقول : لا تزيدوا
مهور النساء على أربعين أوقية . قالت امرأة : ان الله يقول : « وآتيتهم
أحدهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » قال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وظل عمر معروفا بوضوح الرأى وقوة العاطفة ، والطبيعة الزاهدة .
حتى ولى الخلافة فعرف بالعدالة المطلقة التي بلغت غايتها وحدودها . والتي
امتدت الى أهله قبل الناس جميعا . فكان من نصيبهم مضاعفة الجزاء في
العقوبة والدرجات الأقل في العطاء . فلم يول عمر أحدا من أهله إبان
خلافته . ولكنه عندما أقام الحد على ابنه ومات قبل أن يتم ، أمر أن
يستوفى وهو ميت .

وكان بعيد النظرة ، أكسبته الحياة خبرة وتجربة عميقتين . قال
رجل لعمر : ان فلانا رجل صدق . قال : هل سافرت معه أو أئتمنته ؟
قال لا . فقال : لملك رأيت يرفع رأسه ويخفضه في المسجد .

(١) وذلك في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي تحريم الخمر حين
قال : اللهم بين لنا في الخمر فأنها تذهب المال والعقل فنزل قوله تعالى :
« يسألونك عن الخمر » الخ . فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا
فحرمت في الصلاة فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزل قوله
تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان
فاجتنبوه لعلكم تفلحون » وموافقته في ترك الصلاة على المنافقين وفي
الاستئذان وموافقات أخرى كالأذان وغيره

وكان يكره المفالة حتى في العبادة . لما رأى شاباً منكسباً رأسه في المسجد صاح به : ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب . وقال للرجل المنطوى في ذلة بعد أن علاه بالدرّة : لا تمت علينا ديننا .

وكان واضحاً في إيمانه ، قويا ، لا يقبل الا كل صريح وحق . لما قبل الحجر الاسود قال : اني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع . ولولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

وكان عمر خشنا شديداً ، ضرب المثل في الخشونة والشدة . قال عمر : والله انا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً . حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل في وقسم لهن ما قسم . فبينما أنا في أمر أثمره ، إذ قالت لي امرأتى : لو صنعت كذا وكذا فقلت لها : وما لك أنت وهذا . فقالت لي عجباً يا بن الخطاب : ما تريد أن تراجع أنت وان ابنتك لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان .

وقد كان عمر يحب الغناء ويطيل الاصغاء اليه ولكنه كان ورعاً . روى أنه بينما كان متجهاً الى مكة في جوف الليل سمع صوتاً يغنى فما زال يوضع راحلته حتى دخل بين القوم يسمع الى مطلع الفجر . ثم قال للقوم : ايه قد طلع الفجر ، اذكروا الله .

ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة صعد على المنبر وقال : اللهم اني غليظ فليني لاهل طاعتك بموافقة الحق . وارزقني الشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق . اللهم اني شحيح فسخني في نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير .

بلغني أن الناس هابوا شدتي . وخافوا غلظتي . وقالوا : كان عمر يشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف اذا صارت الأمور اليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق . كنت سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله . ثم اني وليت أموركم . فاعلموا أن تلك الشدة ضوعفت ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدي . فأما أهل السلامة والدين والفضل فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض . فإذا غبت في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم ولكم على ألا أجتني شيئاً من خراجكم الا في وجهه .

وقد وفي عمر لمهام عمله كحاكم أصدق وفاء حتى يروى على ابن أبي طالب فيقول : رأيت عمر على قتب (بعير) فقلت يا أمير المؤمنين : أين تذهب ؟ فقال : بعير ند (شرد) من ابل الصدقة اطلبه . فقلت لقد أذللت الخلفاء من بعدك . فقال عمر : يا أبا الحسن لا تلمني . فوالذي بعث محمداً بالنبوة لو أن عتاقاً (عنزاً) ذهب بشاطئ الفرات لستل عنها عمر يوم القيامة .

وكان لا يشغله الا الولاية بتخيرهم ويسأل عنهم : قال لأصحابه مرة : دلوني على رجل أستعمله . قالوا : وما شرطك فيه . قال : اذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، واذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم

وكان اذا ولى واليا كتب عليه العهد الا يركب يرذونا ولا ياكل نقيا ،
ولا يلبس رقيقا ، ولا يفلق بابه دون حاجات الناس .

وكان يقول : أشقى الولاة من شقيت به رعيته .

وكان غيورا على الناس يدفعهم ويحول بينهم وبين الشر : يقول : ان
قريشا تريد أن تكون مغويات لمال الله تعالى . أما وأنا حي فلا . الا أنى
أخذ بحلقم قريش عند باب الحرة أمنعهم من الوقوع فى النار .

وقوله : انما مثل العرب مثل جمل أنف اتباع قائده فلينظر قائده
حيث يقود . أما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق .

وكان رابه فى الرجال عميقا بعيد المدى - يقول : الرجال ثلاثة: رجل
ذو عقل ورأى فهو يعمل عليه ، ورجل اذا حزبه أمر أتى ذا رأى فاستشاره
ورجل حائر لا يأتى رشدا ولا يطيع مرشدا . وقال يوما لمن حوله : أرايتم
اذا استعصمت عليكم خير ما اعلم ثم أمرته بالعدل اكننت قضيت ما على ؟
قالوا : نعم . قال لا . حتى أنظر فى عمله ، أعمل بما أمرته أم لا .

وله فى أمر الحرب والجيوش المحاربة مواقف تدل على مدى يقظته
وصدق عزمته وإيمانه . يقول لسعد بن أبى وقاص : تفرق بالمسلمين فى
سيرهم ولا تجسمهم مسيرا يتعبهم ولا يقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى
يبلغوا عدوهم . والسفر لم ينقص من قوتهم . واقم بمن معك فى كل جمعة
يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم .

وكان يكتب لكل قائد من قواده : صف لنا منازل المسلمين والبلد
الذى بينكم وبين المدائن . صفه كأنى أنظر اليه واجعلنى من أمرهم على
الجلية .

ويقول : « أنت الشاهد وأنا الغائب . والشاهد يرى ما لا يرى
الغائب » .

ولما زار أبو سفيان ابنه معاوية والى الشام ورجع من عنده دخل على
عمر ، فسأله عما حمل معه من الشام فأذكر أبو سفيان أنه أحضر معه
شيئا . فمد عمر يده الى أصبع أبى سفيان وخلع خاتمه ثم أعطاه لرسوله
وقال له : اذهب الى هند زوجة أبى سفيان وأعطاها هذا الخاتم ، وقل لها
ان أبا سفيان بعثنى فيما أحضره معه من الشام فصدقت هند وسلمته
خرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر فى بيت المال .

وكان من فرط حرصه على العدل يأتى مجزرة الزبير بن العوام ومعه
الدرة فان رأى رجلا اشترى لحما يومين متتابعين ضربه بالدرة وقال : الا
طويت بطنك يوما .

وقد جعل موسم الحج موسما عاما لحاسبة الولاة . ووضع نفسه
مثلا لولاته فقال : لا يحل لأمر من مال الله الا حلتان : حلة للشقاء وحلة
للصيف وما أحسج به وأعتمر وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس
أغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين .

وقد كان حفيا بالفقراء يقول : يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد
وضح السبيل فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين .

ويقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لآخذت فضول أموال
الاغنياء فقسمتها على الفقراء .

وكان عمر متواضعا خشنا لا يحب المظاهر البراقة ولا يتعالى ، فيه
زهادة واضحة . عندما قدم الى الشام كان يركب حمارا تبادل ركوبه مع
خادمه وعليه جلباب .

وكان يستطلع أنباء المحاربين فيخرج من المدينة ويوغل في الطريق
حتى يلقي من يسأله . ولقى مرة رجلا قادما من فارس فسأله عن المسلمين
فذكر له الرجل انتصارهم واستشهاد النعمان بن مقرن فهاله النبا ، وآدته
المصيبة فبكى ونشج . فلما رأى الرجل ما دهاه أراد أن يخفف عنه فقال
يا أمير المؤمنين : ما قبل بعده من رجل يعرف وجهه (أى من سواد الجند
ليس فيهم قائد) فلم يشغل عمر بكاؤه على النعمان من الرد عليه فقال :
لكن الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم !!

وهو مثل للأناة . قيل له رجل ارتد . قال فماذا فعلتم به ؟ قالوا :
قتلناه . قال : هلا أدخلتموه بيتا وأغلقتهم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفا
لفاستتبتموه ، فان تاب والا قتلتموه . اللهم انى لم أشهد ولم أمر ، ولم
أرض اذ بلغنى .

وكان لا ينام الليل ويقضى يومه يقظا . بعث أحد الولاة رسولا الى
عمر فلما وافى المدينة ليلا قال : أنام فى المسجد حتى اذا أسفر الصباح
أبلغت الرسالة . فلما دخله سمع صوتا خافتا يناجى فقال السلام عليك
يا أخا العرب .

فقال عمر : من !!! يرحمك الله . قال انى رسول والى مدينة كذا الى
أمير المؤمنين . قال له : تعال هنا وقل ما عندك . أنا عمر . فعجب الرسول
وقال له عمر : بشئ ما ظننت يا أخى كيف أكون مستولا وأنا . والله لو
نمت نهارى لضيعت الرعية ولو نمت ليلى لضيعت نفسى .

وفى معنى القوة فى شخصية عمر حديث الرسول عنه : أريت فى المنام
أنزع بدلو يكرى على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا .
والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا . فلم أر عبقرى
يفرى قريبه حتى روى الناس وضربوا بعطن . وقد تحققت نبوءة الرسول
فى حكمه الطويل . وقد كان عمر مطبوعا على الحق لا يهاب فيه أحدا .
وموقفه مع ابن عمرو بن جبلة بن الايهم وأبى سفيان يعطى المثل فى
ذلك . ومن حسابه لنفسه أنه حرم على نفسه الطعام عندما أصابته
المسلمين المجاعة ، واكتفى بالزيت حتى اسود لونه .

وكان يمتنع أن يأخذ من بيت المال قرضا حتى لا يتركه الناس له
اذا مات قبل أن يسدده . وقال بشئ الوالى أنا - ان شبعتم - والناس
جياع .

وكان الى هذا الزهد مخيفا حتى لقد رفضت النساء ازواج منه والعيش معه وقالت عنه احدهن انه خشن العيش شديد على النساء .

وقد أمن الناس منه طابع الشدة والصرامة حتى ليقول للرجل مرة اننى أكرهك فيقول له : هل ينقص ذلك من عطائى ؟ فاذا قال له عمر : أن لا ، قال الرجل : اذن لا يبيكى على الحب غير النساء . وهذا معنى من معانى التجرد الخالص الذى يفصل بين العواطف والحقوق .

وكان يحصى ثروات الولاة قبل أن يوليهم ثم يحاسبهم كل عام ويدعوهم أن يحضروا الى المدينة نهارا . ويسأل عنهم أهل أقطارهم في مواسم الحج ، ويرسل اليهم من يتعرف أعمالهم . ويحرق باب البيت الذى بناه سعد بن أبى وقاص والى الكوفة ويقول له : ان بيت الرأى لا باب له ..

وكان قد عزم على أن يزور الاقاليم كلها ليتعرف حاجات الناس واعمال الولاة ، لولا ان أدركه الموت . وقد حاسب خالدا واقتسم معه نعايه . كما حاسب عمرو بن العاص وابا هريرة .

وله قصص فى البحث عن الرعية ليلا . وقصته مع أم الطفل الرضيع ومع بائعة اللبن التى كانت تخلطه بالماء . والزوجة التى غاب زوجها فى الحرب . والمرأة التى كانت توفد للاطفال على الماء حتى يناموا . ويذهب بنفسه فيحرس التجار الذين يقدمون ليلا . ولا يعهد بهم الى غيره . ويعالج ابل الصدقة بنفسه ويمر على بيوت الغائبين فيسأل ويقرأ البريد ويكتب لهم الردود . ويشترى لهم حاجتهم من السوق .

وقد قضى للطفل منذ أن يولد ، وأعطى العاجز ولو كان يهوديا . وفرض للمولود النقيط ، وأمر بأن يعود المحاربون بعد فترة الى أهليهم . وكان لا يقضى بالحد الا بعد أن يستنفد كل أسباب الشك فى القضية . وكان يحاول أن يجد مندوحة عنه ويقول : « اذا رأيتم أخوا لكم زل زلة فسدوده ووقفوه وادعوا الله أن يتوب عليه » .

وهو كحاكم يفار على المرأة ويرفض اقامة الشاب الذى ناجته المرأة أن يبقى بالمدينة ، ويفار من كل ما يختلف مع طبعه . فقد خفق بدرته الرجل الذى رآه يتبخر فى الطريق وآخر يتكلف الحشوع فى المسجد . كما ضرب بالدرة الامة التى رآها تتشبه بالحرائر . وسامو الحطينة على ترك هجاء الاعراض فى مقابل ثلاثة آلاف درهم .

ومن قوله : من كنتم سره كان الحيار فى يده . أعقل الناس أعذرهم للناس . من لم يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه . اشكو الى الله ضعف الامين وخيانة القوى . لا يكن حبك كلفا ولا بفضك تلقا . تفقهوا قبل أن تسودوا . ارووا الاشعار فانها تدل على الاخلاق .

ولقد حكم عمر عشر سنوات كانت من أبرز سنوات الاسلام حياسة وجهادا وقوة ، جمع القرآن بعد أن استحر القتل فى القراء . فتح فى عهده العراق والشام ومصر .

وترك ذكرا ضخما وصورة جبارة للحاكم العادل .

✽ قضية ولا أبا حسن لها .

على بن أبى طالب

تعطيك أحداث حياته منذ فجرها الى نهايتها صورة « الورع »
مظهرها هذه الزهادة المؤمنة مع الشجاعة التى لا تحس معها ميلا الى الطمع
فى الوصول الرخيص .

رهو على صفته من « الورع » لا يتحول مع الزمن . ولا يترك شعيرة
من شعائر خلقه أو شميلة من شمائل طبعه فى سبيل مواجهة موقف من
المواقف بالتغدر أو الخداع أو بالحيلة .

وقد تغيرت الدنيا بعد عمر ولكن عليا لم يتغير واختلقت وسائل
الناس فى فهم الامور وقبولها والاعتناع بها وبقي هو على طابعه من الشجاعة
والمروءة والعدل ، لا يحيد ولا يمالئ ولا يحابي فى الحق الذى اعتقده .

لا يعرف البغى ولا يغدر بخصمه قبل المعركة ولا فى خلالها . فاذا
انتصر عليه عامله بخلق السماحة والمروءة ، وهو مع ثقته بأنه على الحق ،
وقدرته الحربية على الظفر لا يبدأ بخصومة ويجنح الى السلم ويقبل رأى
أنصاره .

ولى الخلافة والدنيا من حوله مضطربة بالفتنة والحلاف والصراع .
ولكنه ظل على طبيعته واستعداده محتفظا بمثله العليا يريد أن يعود بالناس
مرة أخرى الى نهج النبى وطريق عمر . وكان ذلك عسيرا ، فان الفترة التى
قضاها عثمان فى الحكم غيرت كل شئ وفتحت الكثير من الأبواب ومروا
الناس خلالها على أوضاع وأساليب لم يكن من اليسير ردهم عنها بعد .

ذلك أن عثمان بحكم سنه المرتفعة وطبيعته العاطفية وفهمه للحياة ،
وغناؤه وراثته وحبه لاهله والمقربين اليه ، جعل من العسير على « على » أن
يعيد الناس ، ولم يكن فى طبع على ما يجعله يجارى أهواء الناس ويخضع
لظامهم .

وكانت هذه نقطة الارتطام فى خلافته خلال خمس سنوات كانت
حربا مستمرة بين على وبين مثيرى الفتن وبين على وبين من كانت لهم ضلع
قوية وعضد متين فى تأليب الناس بعضهم على بعض .

كان عنوان هذه الحروب « الطمع » من ناحية مثيريها . وكانت من
ناحية على إيمانا بحق الحاكم الذى لم يتقدم للحكم ، والذى عندما طلب
اليه تردد . فلما وجد الامر يتعلق بالشهامة والمصير العام قبل المسئولية
وتقدم .

وقد سجل هذا على حين قال : « لقد أتيتموني فقلت لى بايعنا فقلت لكم لا أفعل وقبضت يدي فبسطتموها ونازعتكم كفى فجدبتموها . وقلت لا نرضى الا بك ولا نجتمع الا عليك . فبايعتموني وبايعنى طلحة والزبير . ثم ما لبثا ان استأذنا للعمرة فسارا الى البصرة فقتلا بها المسامين وفعلا «الأفاعيل» .

لقد شهد على الناس وهم يتحولون من حكم عمر الى حكم عثمان . وقد خرج أصحاب الرسول من مكة الى الامصار ، وفتحت الامصار ، وتدفقت الأموال . وتوقف الجهاد أو كاد ، وشمل الناس جو من الحياة الهادئة اللينة . .

فكان طبيعيا أن تشور المطامع وأن تلبس أنوابا من المطالبة بدم عثمان أو غيره من التعلات .

ربى « علي » فى أحضان الاسلام . وكان ثالث ثلاثة دخلوا فى الدين الوليد : خديجة وأبو بكر . ونشأ وفى دمه هذه الصورة الحلوة الرائعة ، صورة رسول الله فى حربه وسلمه وزهده وتقشفه وحكمته وعلمه . وكان يخرج مع الرسول وخديجة يصلون فى الشـعاب . وعرف منذ شبابه بالشجاعة . وهو الذى اختاره الرسول لينام فى فراشه ليلة الهجرة ، وحيث التحف ببرده الاخضر وقضى ليلته . وقد قبل ذلك وهو يعلم أن قريشاً تأتمر بالنبي لتقتله ، وهاجمه القوم فى أول الصباح ، ولما لم يجدوا محمداً فى الدار أوسغوه ضرباً وحبسوه فى المسجد وأقاموا عليه الحراس والارصاد .

وقد خاض المعارك كلها الى جوار رسول الله . وكتب عقد الحديبية . وتلا صدر براءة فى العام الذى حج فيه أبو بكر بالناس حيث ارتضى الرسول أن يؤدى عنه هذا ، رجل من أهل بيته .

وقد عرف عنه أنه ما صارع أحدا الا صرعه . لم يبال الحر ولا البرد . كان جريئاً على الموت . خرج « لعمر بن ود » فى معركة الخندق عندما نادى : هل من مبارز ؟ فلما رآه عمرو قال له : ان من أعمامك من هو أشد . وانى أكره أن أريق دمك . قال له علي : ولكنى والله لا أكره أن أريق دمك . . فهوى عليه بسيفه فتلغاه فى درقته ، ثم ضربه على فقتله .

وكان فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان الناصح المشير .

وقد كان قاضيا فقيها : حتى قيل « قضية ولا أبا حسن لها » وكان يقول : سلونى عن كتاب الله . فو الله ما من آية الا وأنا أعلم أنزلت بليل أم نهار . فى سهل أو فى جبل . وروى عن قيس بن عباد قال : دخلت المدينة التمس العلم والشرف فرأيت رجلا عليه بردان . له صغيرتان راضعا يده على عاتق عمر ، فقلت : من هذا ، قالوا : على بن أبى طالب .

وكان يردد دائما قوله : ألا انبئكم بالفقيه حق الفقه . من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم من معاصى الله ولم يؤمنهم من مكر الله

وقد أحبه الرسول وآخاه بنفسه مرتين ، وزوجه من ابنته فاطمة وقال له : أنت منى بمنزلة هارون من موسى . الا أنه لا نبي بعدي .

وقد اشترك في قتال بدر وسنه عشرون عاما كما اشترك في أحد والحنديق . وأرسله الرسول في أثر القوم بعد أن انصرفوا من أحد ليعرف ماذا يكون من أمرهم ، فلما رآهم يركبون الإبل عرف أنهم قصدوا الى مكة فعاد الى الرسول يبلغه الامر .

وفى خيبر امتنعت الحصون على المسلمين بعد أن جهد أبو بكر يوما وعمر يوما آخر . وقال الرسول : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه . ليس بالفرار . وبات المسامون يحزرون من سيكون ، فلما أصبح الصباح أعطى الراية لعلي .

وقد فتح له . وشدد على المشركين ، وكان يضرب على الهامة فيسمع أهل العسكر صوت الضرب فتراجع العدو وانكسر وأسلمت الحصون للمسلمين .

وقد حدث له أن أراد مدافعة عدوه فاجتذب باب الحصن فالتقاء على الأرض ثم اجتمع عليه سبعون رجلا حتى أعادوه .

وكان يستحي من العورات . وقد ترك طلحة بن عثمان فلم يجهز عليه في أحد لانه كشف عورته . وأصابته في هذه المعركة ست عشرة ضربة ولم يبال بها . فقد كان يحمل لواء الرسول بعد أن قتل مصعب بن عمير . وقد وقف يناضل عنه ويدافع حين تفرق المسلمون .

وقد بعثه النبي الى همدان فأسلمت في يوم واحد .

ولم يندب على خلال خلافة أبي بكر وعمر وعثمان لقيادة الجيوش . ولم يدع الى الولاية والامارة - ولم يدع أحد من أهل بيته - ولقد صور عمر مرمي هذا حين قال للعباس : اني رأيت رسول الله استعمل الناس وترككم . والله ما أدري أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشي أن تباعدوا بمنزلتكم منه .

وقد توقف « علي » عن البيعة لأبي بكر أول الامر ، ثم بايع ، وكان فريق من المسلمين يرونه أحق بها .

ولما وقعت الفتنة في عهد عثمان وقف منها موقفا دقيقا غاية الدقة ، فقد كان يخالف عثمان الرأي في بعض الامور ، وكان الناس يقصدونه ويكلمونه في تصرفات عثمان وأتباعه .

وحين انتهى الامر بمقتل عثمان . وصل الامر اليه على هذه الصورة من الخطر والفتنة والمطامع . فواجه الموقف على طريقته وأسلوبه . فاغضب ولم يرض . كان طلحة يطمع في ولاية العراق والزبير في ولاية اليمن ولكنه عزل ولاية عثمان وولى بدلا منهم ولم يولهما ، فانتقضا عليه . كما عمد الى استرداد الاقطاعات التي وهبها عثمان للمقربين وضمها لبيت المال . ولكن معاوية رفض أن يبايع لعلي ودعا الى ثار عثمان وطالب بدمه باعتباره وليه . واتسمت الفتنة وقمعها على بالحرب وانتصر ، ولكن أنصاره اختلفوا وصنع

الدعاء مع معاوية وتابعه عمرو بن العاص ما لم يفعل الورع مع علي وتابعه
أبي موسى الأشعري الذي عزل صاحبه فقام عمرو فثبت صاحبه . ورد
أم المؤمنين عائشة ، التي خرجت مع الزبير وطلحة معززة مكرمة بعد
هزيمتها وصاحبها في معركة الجمل .

ولم ينخدع علي عندما رفع أصحاب معاوية المصاحف على السيوف ،
ولكن أصحابه أرغموه . ولم يقبل التحكيم ولكن أصحابه غرضوه عليه .
فلما قبله خرجوا عليه .

وهنا أراد القدر أن يضع النهاية لهذه الحياة التي واجه صاحبها في
خلال أمد خلافته القصيرة مزيدا من الفتن والمتاعب والصراع الداخلي بين
المسلمين ، فخرج ثلاثة يريدون أن يخلصوا الحكم من رجاله الثلاثة : علي
ومعاوية وعمرو . فقتل اثنان ونجح الذي أراد عليا . الخليفة الزاهد .
نجح لأن عليا في الحقيقة لم يكن من أهل الدنيا في صراعه الذي بلغ غايته
وترك معاوية وعمرو لانهما أقدر على مواجهة الحياة بأساليب السياسة
والمكر والدهاء .

وكان هذا عنوانا على ختام دور الخلفاء الراشدين ، في صورته
النبوية العمرية الدقيقة .

ولقد كان علي زاهدا حقا : يقول يا دنيا غري غري .

وكان حكيما لا يرضى في صراع الحياة بالتجهم فيقول : اجموا
(أريحو) هذه القلوب والتمسوا لها طريق الحكمة فانها تعمل كما تعمل
الابدان .

وكان مسلكه عمريا في حكمه حتى انه رفض أن يعطي اخاه «عقيلاً» من
بيت المال . وقال له : اصبر حتى يجيء مالي وأعطيك ما تريد . فغضب
وفارق عليا وقصد معاوية في الشام .

ولم يكن علي يستأثر بشيء من الفء ولا يخص به حميما ولا قريبا
ولا يخص بالولايات الا أهل الديانات والامانات .

✽ لقد كان سددا لنحور العدو ميمون النقيبة •

فالح بن الوليد

« لقد شهدت مائة زحف او زهاءها .. وما فى بدنى موضع شبر الا وفيه ضربة بسيف او رمية بسهم او طعنة برمح - ولقد طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى الا أن أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت العير . ما من عمل أرجى عندى وأحب بعد أن لا اله الا الله من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين .. وما ليلة يهدى الى فيها عروس أنا لها محب أو ابشر فيها بفلام أحب الى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين » .

كانت هذه عبارة خالد الاخيرة قبل أن ينزل الستار على حياته الحافلة .. لتصبح بعد ذلك قصة خالدة فى قم التاريخ .

مائة زحف انتصر فيها خالد فى الجاهلية والاسلام . وفى مدى امتد أكثر من ثلاثين عاما . بدأه فى مكة وختمه فى قنسرين . ومضى رافعا سيفه فى وجه العدو فى شبه الجزيرة العربية الى العراق ثم الى الشام . وهو حيث يمضى ، الفارس المنتصر ذو الراى فى الحرب والتنظيم . وذو الحيلة والخدعة للخصوم . وذو البأس الشديد على الكفار وزعماء حروبهم وقادة جيوشهم .

وله فى ذلك مواقف غر خالدة : يوم أجرى البحر بدم خصومه . ويوم اليمامة . ويوم مقتل مسيلمة . وهزيمته لطلحة بن خويلد . ومقتل مالك بن نويرة . وجولاته المظفرة فى حرب الردة . وفى ذات السلاسل والمزار والولجة واليس ومفیشا وهجماتة فى الحيرة وعين التمر والأنبار ودومة الجندل والفراض على شاطئ الفرات وموقعة عقرباء الطاحنة .

ومسيره بالجيش من العراق الى الشام فى مفازة لا ماء بها ، يوم أعطش الابل ثم سقاها وكم أفواهاها ومضى ينحرفا فى مراحل الطريق فيروى الناس والخيل . ومواقفه فى اليرموك ودمشق وحمص وقنسرين وكان خالد فى هذه المواقع قدبرا على احراز النصر بالتكتيك الحربى المبتكر يعرف كيف يقوى الروح المعنوية فى جنوده وأتباعه . ويعرف كيف ينظم الجيش ويقسمه الى كراديس .

وعندما وصل الى الشام وجد جيوش المسلمين تقاتل متساندة كل قائد على حدة . عمرو فى فلسطين . وابو عبيدة فى حمص . وابن

أبى سفيان في دمشق . فلم يوافق على هذه التجزئة . واقترح عليهم تبادل قيادة الجيش الموحد وقال : « هذا يوم من أيام الله لا ينبغي له الفخر . اخلصوا جهادكم وارضوا الله ولنتعاون الأمانة وليكن عليها بعضنا اليوم . والآخر غدا والآخر بعد غد . لنتقاتلوا قوما على نظام وتعبئة . وأنتم على انتشار وتساند » .

وقد كان من نتائج هذا انتصار المسلمين في اليرموك .

وكان خالد بطبيعته المحاربة اليقظة : لا ينام ولا ينام . ظل يتربص حول سور دمشق حتى عرف أن فرحا أقيم لمناسبة ميلاد طفل للبطريرك وأن الجنود ذهبوا الى هناك ، وعندئذ هاجم السور من مكان ضعيف واقتحم المدينة .

وعرف كيف يعالج نفسيات الجند فأمر أن تسير فرقة من نساء العرب مع الجيش لتقوى من عزم الجنود وتدفعهم الى الحماسة في الحرب .

واستعمل نظام المؤخرة ، وأسلوب المفاجأة ، وطريقة التطويق . وعندما واجهته الخنادق لم يتوقف ، نحر ضفاف الأبل من جيشه وألقى بها فيها ثم أمر الجيش باقتحامها .

وعرف بالقسوة القاسية في قتال أهل الردة ، يقتل دون رحمة أو شفقة . فيقطع الرقاب ويدمر القرى . حتى وصف عمر سيف خالد بأن فيه رهقا .

وعندما اجتمعت عليه الجموع في « اليس » دعا الله أن منحه أكتافهم إلا يستبقى منهم أحدا حتى يجري النهر بدمائهم . فلما تمكن منهم ظل يأمرهم حتى اذا انتهى من المعركة أمر بضرب أعناقهم في النهر فجرت دماؤهم مع مياه النهر ثلاثة أيام .

أسلم خالد متأخرا . فقد كان على رأس جيش قريش في موقعة أحد ، وكان عاملا من عوامل هزيمة المسلمين فيها . وظل على رأيه في الإسلام الى ما بعد عمرة القضاء .

وكان قد شهد المسلمين في الحديبية . ورأى رسول الله هو وأصحابه بصفان يصلى . فقام وراءه وتعرض له . يقول خالد : « صلى النبي بأصحابه الظهر اماما . فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا وكان فيه خير . فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف . فوق ذلك منى موقعا . وقلت « الرجل ممنوع » واقتربنا . فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالسراج قلت في نفسي : أى شيء بقى ؟ ابن المذهب ؟ الى النجاشي ، فان أتباع محمد وأصحابه آمنون عنده ؟ فأخرج الى هرقل . فأخرج من ديني الى نصرانية أو يهودية ؟ أفأقيم في عجم أو أقيم في داري فيمن بقى ؟ » .

وبينما هو في هذه الحيرة دخل الرسول مكة في عمرة القضاء .

وسأل عنه . وقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام . ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له وقدمناه على غيره .

وسمع خالد هذا فاتجه الى المدينة فلما سئل في ذلك قال : لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بساحر ولا شاعر . وان كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه .

ومنذ ذلك اليوم فتح له في التاريخ باب من الخلود لم يفتح لمثله من قبل . فقد أتيح له الظفر في كل معركة حتى أطلق الرسول عليه عبارته الخالدة « سيف من سيوف الاسلام » . ولم يلبث أن أخذ مكانه سريعا في الصفوف الاولى . وعندما فتحت مكة كان أحد الثلاثة الذين سيطروا على الكتاب : سعد بن عبادة ، والزبير بن العوام ، وخالد

واشترك في حياة الرسول في غزوتي : مؤتة وحنين . ولكن بطولته وعبقريته الفذة لم تبرز بصورة متألقة الا في معارك الردة .

ولا شك أن انتصاراته في شبه الجزيرة في حروب الردة كانت بعيدة الأثر في استقرار الاسلام وثبات قوائمه بعد أن كادت تزعزعه دعوات المتنبيين . واندفع الى العراق فمضى زاحفا حتى ضرب دولة الاكاسرة في الحيرة . وصلى صلاة الفتح ثمانى ركعات بتسليمة واحدة وفي الشام بلغ قمة الظفر بمعركة اليرموك حيث هدم ركن دولة الرومان وصدها الى ما وراء الحدود وأتم النصر في « قنسرين » .

وبذلك سجل خالد في تاريخ الاسلام صفحات غراء بعيدة الأثر في كيان الامبراطورية الاسلامية وعظمتها .

وكانما كان ذلك ابذانا بانتهاء مهمته . فقد بلغ غاية الشهرة . وتحدث الناس عنه كأنه آله في الحرب لا يهزم . وكانما خشى عمر أن يفتتن الناس به فيعجزوا عن الحرب اذا لم يكن على رأسهم خالد . فقال في عزلة : ان الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا اليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع .

وكان عزل خالد هو أول أمر أصدره عمر عندما ولى الخلافة ، فلما بلغ أبا عبيدة الأمر بتوليته قيادة الجيش وعزل خالد . استحيا « أمين الأمة » أن يقرأ خالد الكتاب حتى فتحت دمشق . ولقد استقبله خالد راضيا ، وحارب تحت أمرة أبي عبيدة جنديا ، ولم تتأثر نفسه أو يحفظه هذا التصرف على عمر بل قبله ومضى يجالده أعداء الاسلام في نفس الصرامة والايمان الذي يملأ نفسه .

فاذا عدنا الى حياة خالد الخاصة وجدناه انسانا طموحا يصل من الرجولة الى ذروتها . فهو يحارب مستميتا . فاذا انتهت الحرب أحب الحياة الناعمة وبهجتها .

ولقد أثر عنه كثرة الزواج والاعراس . حتى تكاد تجتمع في نفسه لذة النصر ولذة العرس . وليس عليه في هذا ضير فهو فارس كامل.

الرجولة حاد العاطفة ، تزوج في وادي الوبر بنت مجاعة ، وتزوج في دومة الجندل ابنة الجودي ، وتزوج في ميدان القتال في حرب اليمامة .

وتعرض للمؤاخذه من أبي بكر وعمر لزوجاه من امرأة مالك بن نويرة بعد قتله . ودعاه الخليفة أبو بكر لمناقشته . فقدم وعليه قباء عليه صدا الحديد معتجرا بعمامة له قد غرس فيها أسهما فلما أن دخل المسجد قام اليه عمر فانتزع الاسهم من رأسه فحطمها . وقال له : قتلت امرأة مسلما ثم نزوت على امراته . والله لأرجمنك بأحجارك . وخالد لا يكلمه . فلما دخل على أبي بكر واعتذر له قبل عذره .

ولقد كانت لخالد عمامة قيل أن الرسول حلق رأسه في إحدى عمراته فاستبق الناس الى شعره فسبق خالد الى ناصيته فأخذها واتخذ منها قلنسوة وتبرك بها في حروبه . وفي مؤتة كسرت في يده سبعة أسياف فما ثبتت في يده الا صحيفة يمانية .

ولقد تحقق لخالد أن يهزم ثلاثة من كبار محاربي الردة : مسيلمة الكذاب في اليمامة . وطلحة بن خويلد مدعي النبوة . ومالك بن نويرة . وتوجه الى اطراف العراق ومعه المثنى بن حارثه الشيباني . وانتصر على الفرس واستولى على الحيرة والانبار . ثم الى جموع المسلمين بالرموك .

وكان مسير خالد من العراق الى الشام مفامرة خطيرة لا يقوم بها الا قائد قوى العزيمة . لم يقبل خالد اجتياز الصحراء من عين التمر الى شمال الشام مع قصر هذا الطريق مخافة القبائل الموالية للروم . لذلك قال لاصحابه « كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم . فاني ان استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين » . واجابوه : لاتعرف الا طريقا لايحمل الجيوش وانما يأخذه الفذ الراكب وعزم خالد سلوك هذا الطريق . وقال : ان المعونة تأتي على قدر النية والاجر على قدر الحسبة .

وبعث فجاء برافع بن عميرة الطائي . فقال له : انطلق بالناس . قال رافع : انك لن تطيق ذلك بالخيال والانقال . والله ان الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه . انها لخمس ليل لا يصاب فيها ماء . وحدث اليه خالد وقال : لا بد والله من ذلك . فمر بأمرك . وكان رافع قد سمع حديث خالد لاصحابه ورأى اقرارهم اياه . وابقن انه لا مفر من نفاذ أمره . فقال : استكثروا اذن من الماء . من استطاع أن يصير اذن ناقته على ماء فليفعل . فانها المهالك الا ما دفع الله . وطلب الى خالد أن يجيئوه بما استطاعوا من ابل سمان . فلما جاءوه بها عمد اليها فظلمها . حتى اذا أجهدها عطشا أوردها الماء عللا بعد نهل . فلما امتلات صر آذانها . وشد مشافرها لئلا تجتر . وانطلق خالد بالجيوش وقضوا خمسة أيام يسيرون في وحرشة الصحراء ووحدها وكل اعتمادهم بعد الله على دليلهم . ينزلون في كل يوم فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء . ثم يشقون بطون عدد من هذه الابل . فلما كان اليوم الخامس وصل الركب الى غاية الطريق وأدرك خالد وجنوده الري .

وبدأ خالد عمله في جبهة الشام : لقد قال أبو بكر عندما لقيه ،
والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ..

ثم لم يلبث عمر أن ولي الخلافة فعزله عن القيادة . ثم عزله بعد
أذلك عن العمل الحربي عامة عندما علم أنه أجاز الأشعث بن قيس بعد
أن مدحه بعشرة آلاف درهم . وقد حاسبه عمر بعد أن أمر بأن يعقل
بعمامته ويسأل عما إذا كان قد أجاز الأشعث من ماله أم من مال
المسلمين . وقد حوسب في المسجد الجامع واعترف بأنه أجازره من ماله
واستقدمه عمر الى المدينة واقتسم معه ماله حتى نعلاه .

وعاد خالد الى حمص فبقى فيها مابقي من حياته ، امدا لا يقل
من أربع سنوات ومات وهو في سن الخامسة والخمسين . ولم يوجد
في بيته عند موته غير فرسه وسلاحه : وقفه للجهاد . فلما علم عمر
بذلك قال : رحم الله أبا سليمان كان على غير ماظنناه به . والله لقد
كان سدادا لنحور العدو ميمون النقية .

وعندما أوفى عمر على الموت : تمنى لو كان خالد حيا ليعهد اليه
أمر الخلافة . ولا شك أن محنة عزل خالد تعطى صورة غاية في الروعة
وهي بطولة أخرى لاتقل عن بطولته الحربية شيئا . فهو الجندى القدير
على ضبط النفس الصابر الذي لم يذهله تصرف عمر معه عن واجبه
الحق حين لم يستطع أحد أن يفتح له باب الفتنة أو الوقعة ورضى أن
يعيش معزولا وهو يرى ميادين القتال مفتوحة وهو بعيد عنها . لقد
حوسب خالد وحوكم وهو في أوج النصر وعزل وهو يطوف بأحلام
خصوم الاسلام ولكنه ظل أيامه كلها لا يذكر عمر بسوء ولا يفتح للفتنة
بابا .

ولو ترك خالد في زحفه الرهيب وعلى رأسه قلنسوة النصر التي
صنعها من ناصية رسول الله ، وجعلها تميمة ، لوصل الى عاصمة
قيصر ، ولفضها على أهلها .

✽ الشهيد الذى غلبت الفروسية فيه على السياسة .

الحسين بن على

بعد الحسين « قمة » القصة التى بدأت قبل ان يلحق الرسول بالرفيق الأعلى . كان ذلك عندما التقى العباس وعلى فأخذا يتساءلان عما لهما فى هذا الامر من شىء . وكان العباس يرى أن يذهب الى الرسول ليوصى لهما . ورفض على ، وقضى رسول الله ، وباع الناس ابا بكر وتأخر على قليلا ثم بايع . وتتابعت الايام . ثم جاء عمر وامتد زمن حكمه . ولم يستعمل عليا ، لم يوله ولم يأذن له فى الاشتراك فى الجهاد . ثم جاء عهد عثمان . وبدأت الدولة الاسلامية تأخذ صورة جديدة فيها الغنى والثراء والترف والمال الوفير والقصور والرياش .

وهنا ظهر « أبو ذر » يدعو الى الاشتراكية الاسلامية . ويمزجها بحب آل البيت . وكانت هذه بذرة التشيع بهم . وقتل عثمان ، واختير على خليفة . وتآلب عليه الصحابة فى المدينة فخرج الى البصرة . ورفع معاوية قميص عثمان على المنبر مطالبا بدمه . وانتهى الصراع بين على ومعاوية على غير ما يجب على . فقد خدع أنصاره بالتحكيم . فأوقفوا المعركة . ثم خدعوا بالحكم فيه . فاعدوا المعركة جديدة . واختلف الانتصار فى « على » نفسه . وانتهى هذا الصراع بقتل « على » ، وتفرد معاوية بالحكم .

ووقف معاوية ينظر الى ابناء على . وانتهى امر الحسن بتنازله عن حقه فى الخلافة . وأدخل معاوية نظام توارث الخلافة فبايع ليزيد فى مكة بالقوة والعنف . وظل الى نهاية أجله ينظر الى الحسين على أنه عدوه اللدود . وأوصى به يزيد فيمن أوصى من شباب المسلمين وابناء الصحابة وآل البيت .

فى هذه البيئة . وعلى هذه الصورة من صور الصراع ، واجه الحسين الحياة . كان فى سن الثلاثين عندما بدأت هذه المعركة التى كان مقتله نهايتها . وبداية معركة أخرى .

كان فى تلك السن عندما نفى « عثمان » ابا ذر الى الربرة . وابو ذر هو النذير الاول بما وقع بعد ذلك من صراع . وعاش فى اتون الحوادث يرى عثمان وأهله وهم يذهبون فى الثراء والترف غايته ، ويرى الصراع بينه وبين الامصار . ويكون احد الواقفين على باب عثمان عندما تجهمت الاحداث وخيف قتله . ثم عاش بعد ذلك فى أيام أبيه . وذهب معه الى الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان .

ورأى كيف تغلب معاوية على أبيه بالحيلة والخدعة . ثم رأى موقف معاوية من الحسن ثم منه . كل هذا كون عنده الاحساس بالحق الطبيعي الشرعى الذى تحاول الاحداث أن تقضى عليه . فأمن بأنه لابد أن يكون واحدا من اثنين : اما «الفداء» لهذا الحق . وأما «الظفر» به .

وقد تحقق له الامل الاول فكان قتله على هذه الصورة البشعة ، وكان استشهاده على هذه الصورة الرائعة بذرة لثورة ضخمة امتدت جذورها فى المجتمع الاسلامى حتى قوضت النظام الاموى كله .

ولد « الحسين » فى السنة الرابعة للهجرة ، ونشأ فى بيئة النبوة . جده الرسول . وأمه الزهراء . وأبوه على بن أبى طالب وقد سماه الرسول باسمه . وكان يحبه ويحملة ويفرح به . ويقول لأمه ان بكاءه يؤذيني . ويدعوه بابنه ويرعاه فى حنان .

وقد روى أن النبى حمله ذات مرة وأطال السجود به . فلما سئل عن سجدته الطويلة ، قال ان ابني ارتحلنى . فكرهت أن أعجله . وكان الحسين أحسن الناس فى الخلق والخلق . ونشأ وهو يسمع الى جده النبى . وأبيه البليغ القوى . وقد ورث منه حب الفروسية والبطولة كما عرف بالذكاء والشجاعة والوقار .

وقد خالف اخاه «الحسن» فى موقفه من «معاوية» وتسليمه له . وأشار بالقتال . ولذلك ظل معاوية بخافه ويهابه . ويحس بأنه صورة من « على » ووصف حلقته بقوله « حلقة » فيها قوم كان على رؤوسهم الطير فتلك حلقة أبى عبد الله مؤتذرا الى أنصاف ساقيه ، .

وكان يعرف بالبلاغة والشعر ورسالة العبارة والفقه . وكان يطاوع الاعراب الشعر . ويناقلهم الادب والشذور .

وكان وفيا كثير العطف والاشفاق « اذا وصلته الهدايا بدا بأيتام من قتل مع أبيه فى صفين ، فاذا بقى شيء نحر به الجزر وسقى به اللبن » .

وقد عرف فى الحرب بالنجاعة الفائقة . وله مواقف مشهودة فى أفريقيا الشمالية وطبرستان والفسطاطينية . وشهرة واسعة فى المصارعة وركوب الخيل والعدو . وعرف بالعاطفة المحبة للجمال . وبالنفس الراغبة فى الفكاهة والتبسُّط . وكان يضحك لفكاهات شعب . ولكن ذلك لم يصرفه عن طبيعته المتدينة الاصيلية . فكان يصلى فيطيل السجود . وكان الى ذلك صواما قواما .

كان الحسين فى جمعه بين الفروسية والادب رمزا للرجولة الكاملة . هذا الى أنسه بالزهور والطور حتى أثر عنه أنه اعتق جارية حملت اليه ذات صباح طاقة من الريحان .

وكان الى ذلك كيسا لبقا « تغلب فيه الفروسية على السياسة » كعلى فهو يؤمن بقوته على مواجهة الخصم بحد السيف . ولكنه لا يرى مواجهته بالخديعة والمكر والدهاء .

واللحسين موقفان قبل موقفه الآخر : موقفه من معاوية حين أراد أن يبايع ليزيد في المدينة فقد عارضه في ذلك . وأنكر عليه . وحاول معاوية أن يستميله فلم يصل الى ما يريد . فدخل على عائشة فشكاه وبعض الصحابة اليها . وهددهم بقتلهم أن لم يجيبوه الى بيعه يزيد . فلما اجتمع بالحسن وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر قال : فاني قد أحببت أن أتقدم اليكم انه قد أعذر من أنذر . واني كنت أخطب فيقوم الى القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس فأحمل ذلك ، وأصفح . واني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة في مقالي هذا لا ترجع اليكم كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه . فلا يبقين رجل الا على نفسه . ثم دعا صاحب حرسه فقال : اقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين . ومع كل واحد سيف . فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما .

وعندما مات معاوية ، وولى يزيد . وأريد له أن يبايع رفض ذلك في أسلوب من الحيلة حين قال لعامل يزيد : أن مثلي لا يبايع سرا فاذا خرجت الى الناس ، ودعوتهم للبيعة ، ودعوتنا معهم كان الأمر واحدا . ثم قصد مكة . وقد ظل الحسين وفيا لمعاوية بعد وفاة أخيه الحسن الذي عاهده على المسألة ورفض أن يستمع لأصحابه الذين حرضوه على خلع معاوية .

وبعد : فسيظل الحسين علما على قصة « الاستشهاد » في تاريخ الاسلام كله فما من شهيد الا وهو صورة من الاسوة الصادقة التي رسمها الحسين . أسوة الاستشهاد في سبيل الايمان بالحق دون مبالاة لأية عاقبة من العواقب التي يبايها الساسة وأصحاب المناورات .

لقد مات الحسين في سبيل الفكرة . في سبيل الحق الذي اعتقد . فقد كان أحق الناس بالخلافة ، بعد ما كادت معالمها تنهار على يد القائم بها والمحيطين به .

ولقد أحس الناس في الأمصار انه أهل لها ، فدعوه . فكان لابد أن يلبي دعوة الرأي العام . وأن يؤدي حق الاسلام المنوط به . كالمعرج في الدولة الاسلامية اذ ذاك .

غير أن الاقدار أرادت غير ما أراد الناس . وغير ما أراد الحسين . وتقلب السلطان الظالم على الحق الزاحف الذي قضى عليه قبل أن يصل الى مداه .

وفكر الحسين وتروى . والناس يسألونه الاسراع اليهم . وهو يكثر المشاورة ويطلب الخلاوة الى ابن الزبير وابن عباس . ثم رأى أن عليه أن ينهض لدفع الظلم . وأراد أن يستوثق فأرسل رسولا من أصدق رجاله يخبر الناس بأمره . ويخبره بأمرهم فبعث مع الوافدين : ابن عمه مسلم بن عقيل . وأتى مسلم الكوفة . وأخذ بيعة الناس وعهودهم وايمانهم للحسين .

وكان من أتباعه نحو من عشرين ألفا من وجوه الناس وأعيانهم

ونحو مائة ألف من المقاتلين والقادرين على الجهاد وكتب بذلك للحسين .
فنهض بآله وقومه يريد الكوفة . وكان اذ ذاك في سن السابعة والخمسين ،
غير ان الموقف تحول في خلال فترة سفر الحسين . لقد قطع الصحراء
من مكة الى الكوفة في شهر كامل كانت الاحداث قد غيرت كل شيء فقتل
مسلم بن عقيل وتفرق اعوانه وسيطر عبيد الله بن زياد على الموقف
فسجن من سجن وقتل من قتل وأرسل رأس عقيل الى زياد في
دمشق ..

ومهما يكن القول في أن الخطة لم تكن مرسومة على وجه دقيق
أو أن الانصار لم يكونوا على عهد استعداد وتضحية . أو أن القوى لم
تكن قد هيئت لحماية الامام الجديد ، فذلك كله لا يغني عن أن الحسين
قد دعى ، بوصفه أحق أهل عصره بأمر الناس ، وأن الناس (وهم الأمة)
هم الذين دعوه . وهم المرجع في أمر الحاكم الصالح . وأنه استجاب
ثقة بنفسه وغيره على حقوق الله وتلبية لرجاء الناس .

فلما وصل الى مكانه الموعود كان الامر قد تطور أو تحول على غير
ما يبتغى . فواجه الموقف في رجولة واستبسال . واستشهد وهو يدافع
عن نفسه وعرضه والحق الذي يؤمن به .

وقتل الحسين بيد العصابة الفادرة . وقتل بعض أهل بيته وحمل
البعض الآخر الى الشام . ولكن مقتله الرهيب ظل أحدوة الدنيا ،
وكان له أبعد الاثر في أصحابه الذين تفرقوا عنه ولم ينصروه .

وبات الحسين الليلة الاخيرة وهو يعرف أن خصومه قد أعدوا
عدتهم لسحقه والخلاص منه فأذن لأصحابه أن يتفرقوا تحت جنح
الظلام . وتلك غاية الخلق ، ولكنهم أبوا الا أن يموتوا دونه .

وكان قد خرج في الثامن من ذي الحجة على اثر عزمه وتصميمه .
لم يكن يعلم أن مسلم بن عقيل رسوله الى أهل الكوفة قد قتل يوم
وصوله . ولم يستمع الى رأى عبد الله بن عباس الذي اظهر له تخوفه
من هذا الوجه وقال له : ان أهل العراق قوم غدر . وخير لك أن تقيم
فأنت سيد أهل الحجاز ، وان ابست فسر الى اليمن فان لابيک بها
شيعة ..

ولكن الحسين أصر . كأنما يريد القدر المرصود الذي لا مفر منه .
أراد أن يصل الى الحق المنكور . أو يكون الدم الذي يكتب صفحة
الفداء . قدم نفسه ضحية ، فكان مداد معارك ، ووقود افكار ، ولهيب
نيران تأججت فلم تخب الا بعد أن اتت على دولة أمية وقوضت بنيانها .

ظهر التوايبن بعد استشهاد فآخذوا بشأره ونكلوا بمن قتله .
وامتدت ثارات الحسين الى قواعد الظلم فأخذت تحطمها واحدة بعد
أخرى .

✽ انى لم احدثكم امرا انا عنه بنجوة • وانما ابدأ بنفسى •

طارق بن زياد

تاريخ قصر لشخصية ضخمة . لا يزيد فى كتب التاريخ عن موقعة فى فتح الاندلس ثم يصمت التاريخ بعد ذلك فلا يقول لنا اين ذهب طارق وكيف مضى مع الحياة أو مضت به .

انه واحد من شباب شمال افريقية ، وابناء هذه المنطقة الحية . من ابنائها الاصليين « البربر » نشأ وشب فتطلع الى غزوات العرب لبلادهم باسم الاسلام فاتجه بطبيعته الى العمل . وكان موسى بن نصير قد ورد افريقية سنة ثمان وسبعين واليا . وهو الذى اكتشف طارقا فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ طنجة وهى قسبة المغرب فاقتضاها واختط القيروان .

ثم سار موسى يريد مدائن شط البحر وفيها عمال صاحب الاندلس . وكانت وجهته «سبتة» هنالك بدأت قصة الاندلس على الصورة التى رسمتها كتب التاريخ .

لذريق والى الاندلس يسىء الى يليان فيبعث يليان الى موسى بالطاعة . وهو الذى دعاه الى فتح الاندلس . وموسى يبدأ بالسرايا فيرسل طريقا الذى اغار على الجزيرة واصاب منها مالا جسيما . هنالك اختار موسى طارقا الذى تصفه كتب التاريخ بأنه فارس « همدانى » فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر . هنالك واجه طارق مائة ألف قادهم الملك لمقاومته وزاد موسى لطارق رجاله خمسة آلاف ، وعبر طارق ، واقتحم جيوش الاندلس فانتصر ومضى الى غاية الشوط . ثم لحق به موسى الذى دخل الاندلس غازيا من طرف آخر . وتحقق للعرب السيادة على الاندلس فى فترة قصيرة . وكان ذلك عام ثلاث وتسعين هجرية .

هنالك تتوقف قصة طارق : هذا الفتى المنسوب الى قبيلة نفرة البربرية التى أسلمت . والتى كان طارق أحب فتياتها الى قلب موسى ابن نصير لما عرف عنه من شهامة وبطولة وحماسة ، روت كتب التاريخ فصولها فى معارك فتح الاندلس والذى كان قد ولاه موسى حاكما على طنجة ثم دفعه الى حرب المملكة القوطية وسحقها .

لقد استطاع طارق أن يواجه بجيشه القليل هذا العدد الضخم من جيش القوط . ومع ذلك انتصر على الرغم من انه يقتحم بلادا

جديدة وغريبة عنه فضلا عن أن منطقة وادى لكة التى دارت فيها المعركة الكبرى الاولى منطقة وعرة المسالك معظمها هضاب وجبال وتلال متصلة. وقد التحم الجيشان فى معركة استمرت سبعة ايام بذل فيها طارق ورجاله صنوفا من البطولة والكفاية والجلد وانتهت بالنصر المبين لطارق وجيشه وهزيمة القوط واندحارهم وتراجعهم امام الزحف حتى غرق ملكهم «لذريق» فى النهر .

واندفع طارق فى الفتح قويا قد أمده النصر بعزيمة صادقة فى نفس الوقت الذى ملأ قلوب أعدائه الرعب فتفرقوا ، واتجه الى طليطلة عاصمة القوط فاستولى عليها ثم تابع زحفه شمالا .

هناك تبين موسى أن الامر فى غاية الخطر والاهمية . فأرسل الى طارق يطلب اليه التوقف وعبر هو بجيش آخر وافتتح عدة مدن وفى مقدمتها اشبيلية والتقى قرب طليطلة . ولعل موسى قد أساء الى طارق وزجه فى السجن ثم عفا عنه . ومضيا معا يشتركان فى اتمام فتح شبه الجزيرة . وما أن أنما الفتح حتى دعا الوليد موسى وطارقا الى العودة الى دمشق فعادا ، حيث توفى الوليد وخلفه سليمان الذى لقى موسى على يديه كثيرا من المتاعب .

اما طارق فقد اتجه رأى الوليد الى توليته حكم الاندلس ، غير أنه انصرف عن ذلك عندما علم مدى ما يتمتع به من هيبة ونفوذ خشى معهما أن يستقل طارق بهذا الاقليم .

وتسترعى نظرى فى شخصية طارق هذه العزيمة التى وصفت بأنه أحرق المراكب بعد أن جاز المضيق ووقف بين جنده يقول : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر .

ومهما يكن من مدى صحة هذه القصة ، فانها تعطى صورة لعزيمة طارق الجبارة . هذا البربرى - ولا أقول الاسود فلم يكن البرابرة سودا - الذى فتحت له أبواب المجد حين وكل اليه موسى أمر الجيش الذى جهزه من العرب والبربر فى بضعة آلاف من المقاتلين . ووقف على الأرض الجديدة وقد شغفه أن يخترقها ، وأن يكتب للإسلام فيها صفحة من صفحات المجد والنصر . فدفع جنوده واندفع معهم يقاتل فى قوة على نحو الصورة التى نسبت اليه « انى لم أحذرکم امرا أنا عنه بنجوة . ولا أحملکم على خطة أرخص متاع فيها النفوس . وانما ابدا بنفسى . وانى عند ملتقى الجمعین حامل بنفسى على طاعة القوم (لذريق) فقاتله ان شاء الله فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتم امره ولن يعوزکم بطل عاقل تسندون امورکم اليه . وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيتمى هذه واحملوا بأنفسکم عليه » . هذه المعانى ايا كان مدى صدق روايتها فانها تدل على نفسية طارق وتعطى صورة عنه وعن أسلوبه فى الحرب . فهو يؤمن بأنه لا بد من سحق قائد العدو اولاً . فاذا تحقق له ذلك فقد انقضى الأمر . وقد فعل طارق هذا ، ونجح وتوغل . ومضى يفتح البلاد فى قوة حتى أوقفه موسى فلم يتوقف . وكيف يقف فى مثل هذا الموقف الخطير ؟

ولقد أثبت طارق بطولة فذة ، فقد استطاع ان يشق طريقه الى قلب هذه القارة الجديدة في قوة . وأن يجاهد جهادا ضخما في سبيل اكتساب أرض جديدة . ولم يكتف طارق بقواته في أثناء زحفه بل طلب مددا جديدا وكانت معارك ضخمة بلغت قوات العدو فيها الوفا مضاعفة . قابها طارق بجنوده الاثنى عشر الفا ، ومع ذلك فقد انتصر .

وتبدو أمامي صورة طارق هذا المسلم الفاتح الذي عبر من افريقيا والذي عاشت في أعماقه صورة الفتوح الاسلامية وهي تراوح المغرب وتعاوده حتى استقرت فيه وصنعت هذا الصنف الحازم الحاسم ذا الشكيمة من البرابرة الذين كانوا من أصلب الناس وأشدهم تعصبا لما يؤمنون به .

ولم يعرف عن طارق أكثر من أنه محارب معصوم من الشهوات والمطامع الفردية . لم تفره مظاهر الحياة البراقة في الاندلس . ولم تفتنه صور الجمال . فقد دخل الاندلس على اثر قصة اغتصاب لذريق ابنة الكونت يوليان حاكم سبتة « الحسناء فلوريدا » ولكن هذا لم يكن في حسابه مطلقا . فقد مضى يفتح بقوة . وجعل نفسه في مقدمة جنوده . وأحب أن يموت في سبيل كسب النصر .

وتم الفتح . . وعاد طارق الى دمشق . .

ثم توقف تاريخه عند هذا الحد فلم يسجل له شيئا .

ماذا كان مصيره بعد الفتح ؟ كيف عاش ؟ كيف مات ؟ هذا ما لم تسجله صحف التاريخ وان روى أنه توفي عام ١٠٢ هـ .

* المجاهد الذي لا ينصرف عن الصّين حتى يأسر ملوكها ويظا أرضها
ويأخذ الجزية .

قَتِيبَةُ بْنُ سَم

ولاه « الحجاج » خراسان عام ٨٦ هـ . ولكنه لم يكن واليا بقدر
ما كان محاربا بعيد الطموح راغبا في الفزو ، ملئ النفس بالأمل في الجهاد .
وقد خرج الى بلخ فاستقبله دهاقينها وعظماؤها ثم عبر النهر فقابله
ملك الصفانيان وأهداه كثيرا من الهدايا وسلم اليه بلاده .

ثم غزا بيكند - بين بخارى وجيحون - وأغار على الصفد وقاتلهم
قتالا شديدا فانهزموا وتفرقوا ثم طلبوا الصلح ، ولكنهم لم يلبثوا أن
انفضوا ، فرجع اليهم قتيبة وفتح المدينة عنوة .

ثم لم يلبث أن واصل فتوحه في بلاد كرمينيه (بين سمرقند
وبخارى) ثم سار الى بخارى فافتضاها على من فيها .

ثم اتجه الى مدائن خوارزم فاستسلمت له . ثم غزا سمرقند
ففتحها بعد قتال شديد . وعاد الى فرغانه وسار حتى بلغ (خجندة)
على نهر سيحون فاشتبك مع أهلها في حرب طاحنة انتهت بانتصاره .
ثم اتجه الى كاشان ففتحها .

وقد تم له ذلك في خلال سبع سنوات استطاع خلالها أن يوغل
في اقليم ما وراء النهر غير أنه في عام ٩٦ بدأ يتجه الى حدود الصين
على رأس جيش كثيف .

ولما وصل قتيبة الى سمرقند وجد كثيرا من الاصنام فأحرقها
وكان اصحابها يعتقدون أن من يمسه أو يعتدى عليها يموت لساعته ،
وقد اعتنق الاسلام كثير من عبيدتها .

ان قتيبة هو أحد هذه المنارات السامقة في تاريخ نهضة العرب
وعظمة الاسلام . هؤلاء الذين كان كل منهم علامة على مرحلة من مراحل
الطريق الطويل في سبيل المجد وعنوان صفحة من صفحات المجد الاثيل .

واذا كان عقبة بن نافع قد اندفع في قلب افريقيا حتى وصل
الحيط ودفع حوافر فرسه في الماء . واذا كان محمد الفاتح قد فض
القسطنطينية ، واذا كان طارق قد عبر البحر وأحرق مراكبه ، فان
قتيبة بن مسلم بلغ غاية ما بلغ فاتح . وصل الى الصين .

وكما يقف خالد وصلاح الدين وسعد بن ابي وقاص والظاهر

بيبرس ، يقف كل منهم على رأس طريق . كذلك يقف قتيبة على رأس الطريق الضخم : طريق العربي الفامر الذي اندفع من مزارع الزيتون في الشام حتى وصل حدود الصين . فوطأ أرضها وقهر ملوكها وحمل منها الجزية الى خليفة المسلمين .

ولولا أنه من المجاهدين الذين وهبوا أنفسهم للغداء لما اندفع مؤمنا بالظفر أو الشهادة . ولما قطع هذا الطريق الطويل يفتح المدن ويفض الحصون ويزلزل القلوب ويدل الاعداء .

وقد وقع له هذا كله قبل ان ينتهى القرن الاول الهجرى ، وفي خلال الصراع بين الخلفاء وفي الفترة التى استحر فيها الخلاف حول الحكم والسلطان . لم يحل هذا بينه وبين الاندفاع فى الارض لرفع راية الاسلام .

كانت أمنية الجهاد تملأ روحه ، فما ان ولاه الحجاج خراسان حتى بدأ يتطلع الى الفتح فخرج الى بلخ ثم بدأ اغاراته . والجيشون تفر من وجهه والملوك تخرج لاستقباله والبلاد تفتح صرورها له . فاذا اعجزه شيء دفع بقواته فانتصر وكله ثقة فى قوته وابعانه .

وظل يقطع الطريق فى قلب آسيا متجها الى الصين . وبعث اليه خليفة المسلمين يشجعه على المضي فى طريقه ويحثه لرفع اعلام الاسلام فى كل مكان يحل فيه : « اتمم مفازيك وانتظر ثواب الله » .

فسار الى حدود الصين على رأس جيش كثيف . فلما علم بوفاة الوليد بن عبد الملك لم يتراجع ، بل واصل طريقه حتى اقترب من الصين . هنالك أرسل الى ملكها وفدا برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابى . وبعد أن دارت بينه وبين مندوبى الصين مراسلات قال ملك الصين موجها كلامه اليهم « انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف . فاني اعرف حرصه وقلة اصحابه . والا ابعث عليكم من يهلككم ويهلكه . فقال له هبيرة : كيف يكون قليل الاصحاب من اول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا وغزالك ؟ وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل فلنا نكرهه ولا نخافه » فأجابه ملك الصين « فما الذى يرضى صاحبك ؟ »

قال هبيرة « انه قد حلف الا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وبأخذ الجزية » . فقال الملك « فانا نخرجه من يمينه . نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطوؤه ونبعث ببعض ابنائنا فيختتمهم . ونبعث اليه بجزية يرضاه » .

ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحريز وذهب وأربعة غلمان من ابناء ملوكهم . ثم اجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب ثم عاد الى مرو .

ولكن قتيبة كان ضحية الخلاف الحزبى فى دمشق . فقد عزله

سليمان عندما ولى الخلافة وعذبه وقتله بحجة أنه من رجال الحجاج ومن الذين وافقوا الوليد على عزله من ولاية العهد .

ولكن اسم « قتيبة » ظل خالدا في تاريخ الاسلام واعلامه . استمرت ولايته ثلاث عشرة سنة . وكان عظيم المكانة مرهوب الجانب . دمث الاخلاق . طويل الروية . قال أحد الاعاجم بعد مقتله : يامعشر العرب قتلتم قتيبة ووالله لو كان فينا لجعلناه في تابوت واستفتحنا به غزونا .

وتوفي عام ٩٦ هـ ويطلق عليه قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي .

* واحد من فرسان الأساطير *

عقبة بن نافع

« .. يارب لولا هذا البحر المحيط لمضيت في البلاد الى ملك
ذى القرنين مدافعا عن دينك ومقاتلا من كفر بك وعبد غيرك » .

قال ذلك عقبة بن نافع وهو يدفع حوافر فرسه فى البحر حتى كاد
يغمره وهو يتطلع الى المحيط باتساعه ولا نهائيته ..

كانت هذه هى اللحظة الرهيبة فى حياته بعد أن عاش عمره كله
يتطلع الى هذه اللحظة وينتظرها وهو مندفع من مصر مخترقا ليبيا
وتونس والجزائر ومراكش .

* * *

انه واحد من أولئك الفاتحين العرب الذين عاشوا فى معترك
الاحداث ، كان أبوه نافع بن القيس فاتحا ذا شأن ملحوظ . اتصل
نسبه بعمر بن العاص الذى وجهه اميرا على برقة (٤٢ هـ) فلم يلبث
أن اندفع ومعه عدد من الفرسان فافتتح كثيرا من تخوم السودان وكورها
حتى وصل الى موقع القيروان فأنشأها .. (٤٦ - ٥٥ هـ) . ثم لم
يلبث أن عزل من منصبه وأمر أبو المهاجر بالاساءة اليه والنيل منه وأعفاء
آثاره . فأخذ عقبة بالمهانة السيئة والسجن الشديد ، فامتلات نفس
عقبة بالسخط ولما علم معاوية ذلك ساءه وأمر بتخية سبيله واشخاصه
اليه فاتجه الى دمشق حيث لقي معاوية ثم عاد الى افريقية حيث اعتكف
سبعة أعوام يتربص الاحداث وينتظر اليوم الذى يتحقق فيه امله فيعاود
الفتح والغزو .

وقد تحقق له ذلك عام ٦١ هجرية بعد وفاة معاوية وولاية يزيد .

وقد وصف بالايمان والصبر فقد اعتزل طويلا حتى تحول على
مدى الايام الى شخصية حربية صوفية لا تهدف الى غير الجهاد فى
سبيل الله .

وما أن ولى مرة أخرى حتى عاد الى القيروان يصلحها ويجدد
بناءها ويكمل تشييدها ولم يلبث أن اتجه الى الفزو فمضى الى السوس
الادنى (خلف طنجة) ثم أفضى الى الزاب ورحل الى تاهرت وانحدر
الى السهل الساحلى حتى انتهى الى طنجة . واجتاز المر الضيق
المحصور بين هضبة الريف وجبال الاطلس الوسطى حيث جنب نفسه
مشقة المرور بالساحل الملى بالمذائن الحصينة وظل منطلقا حتى وصل

الى السوس الاقصى فقاتل جمعا عظيما من البربر وسبى منها سبيا كبيرا وسار حتى بلغ البحر المحيط . وبهذا يكون عقبة بن نافع قد سار في السهل الساحلى الشمالى ثم اتجه شمالا حتى اشرف على البحر الابيض ثم لم يلبث ان اشرف على المحيط الاطلسى بجنوده . وأوقف فرسه فى مياهه وأسف لعجزه عن اجتيازه ، ثم عاد بعد ذلك أدراجه الى القيروان دون أن يترك بأى ناحية مر بها اثرا يذكر .

وقد ظلت شخصية عقبة بعيدة الاثر فى أهل هذه النواحي وعاشت ذكراه عالقة بأذهانهم حتى أيام موسى بن نصير .

ان شخصية عقبة بن نافع تعطى صورة فرسان الاساطير . فى اندفاعه نحو الفتح . وفى ايمانه بالجهاد ، فقد صمم على اكتساح أفريقية حتى يصل الى المحيط الاطلسى . وظلت الامنية فى نفسه فكرة تتجدد على مر السنين منذ وظئت أقدامه أرض المغرب فى عهد عمرو بن العاص ولكنه ما كاد يتأهب للخروج الى الغزو حتى عزله أبو المهاجر فبقى سبع سنوات فى المغرب ينتظر الفرصة المواتية .

وكانت هذه السنوات قد أتاحت له فرصة واسعة للدرس والبحث وممكنه من تكوين فكرة واضحة عن البلاد بعد أن اتصل بأهلها وعرف أخلاقهم وتنقل بين ربوع البلاد ودرس مسالكها .

وقد كان عقبة محببا للفتح . يصرف قلبه الى الجهاد ويكاد يقف نفسه على الغزو حتى انه انصرف عن الفتنة السياسية التى ألت بالمسلمين عشر سنين ولم يجعل فى نفسه غاية أعظم من الفتح والوصول الى ساحل المحيط .

وأضاف عقبة الى ايمانه هذا وطبيعته الدينية المتجردة فهم الاساليب الحربية ودروب البلاد وأماكن الغزو . واستطاع أن يصل الى قواعد ثابتة فى هذا الاتجاه فى مقدمتها بناء مدينة للجند يسكنونها ويتحركون منها الى الفتح ثم يعودون . والتوغل فى البلاد . وغزو البربر دون الاكتفاء بغزو مدن الساحل ونهبها والعودة بالفنينة . ولذلك فانه ما كاد يلى أمر الفتح حتى اتجه الى بناء القيروان ، واسكانها للجند وفتح بعض واحات الصحراء .

ويعطى هذا صورة الرجل البناء الذى يرسم خطة الاستقرار . ومضى فى عشرة آلاف من المجاهدين يزحف وجموع البربر ترده ولكنه استطاع أن يخترق الصحراء ويدك الحصون والقلاع .

لقد آمن عقبة بالنصر وقد تحقق له أن يقف على شاطئ طنجة فى تجاه اسبانيا ويقول كلمته الخالدة .

وعاد عقبة وقد ارتاحت نفسه ، وامتلأ قلبه بشعور جياش بالغبطة على أن أتم الله له نعمة ازتياد المغرب كله غازيا فى سبيل الله .

وهكذا تتجلى شخصية عقبة المؤمنة بالجهاد الذى وهب نفسه للحظة
الخالدة والغاية العليا .

وقد أخذ عليه أنه لم يكن يرسم خطة حربية منظمة . وأنه كان
يندفع فى طريقه لا يهدف الا الى جهاد يحارب فيه الروم ويستولى على ما
ييدهم من أرض ، ويسحق جموعهم . ولكنه لم يكن يترك حاميات كافية
فى البلاد المفتوحة . ولذلك كانت لا تلبث أن تنتفض مرة أخرى . وأخذ
عليه أنه انتقم من أبى المهاجر وحمله معه فى أسفاره مقيدا بالحديد انتقاما
عنه وزيادة فى تعذيبه .

وقد كان أولى به وهو الرجل الذى وهب نفسه لله أن يرتفع عن
الانتقام . ويعطينا عقبة بن نافع صورة المجاهد لا صورة الفاتح . المجاهد
الذى ألقى إليه الظروف أن يصل الى افريقيا فيعيش فيها ويتمنى أن
يقطعها بالعرض فيتحقق له ذلك ويصل الى المحيط . ويشعر عندئذ أنه
أعز الى الله فى التوقف عن الفتح حيث حال دونه العباب الضخم الذى
لا تصل العين الى نهايته .

وقد تحققت له الشهادة فانه لقي قوما من الافرنج فى عودته وكان
غى عدد قليل من جنوده فأطبقوا عليه فجالدهم حتى استشهد .

* لكل أمة أمين . وأمين هذه الأمة أبو عبيدة . *

أبو عبيدة بن الجراح

(عامر بن عبد الله)

روى ان عمر حين دخل الشام قال لأبي عبيدة : اذهب بنا الى منزلك . قال ما تريد أن تعصر عينك على . قالوا : فدخل منزله فلم ير شيئا . قال : أين متاعك ؟ لا أرى الا لبدة وصحفة وشنا . وأنت أمير . عندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة الى جونة فاخذ منها كسيرا فبكى عمر . فقال له أبو عبيدة : لقد قلت لك : انك ستعصر عينك على بكفيك . ما بلغك المقييل .

قال عمر : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة .

وقد وصفه الرسول بقوله : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة . وقد كان واحدا من خمسة عشر أحاطوا بالرسول وفوه بأنفسهم يوم العدوان في أحد . ثم لم يلبث أن يدرك الى الرسول فاخذ ثنية حلقة الففر فنزعها بعد أن عاجلها مرارا وسقطت على الأرض فسمقت . نثنتاه .

وقد كان أبو عبيدة طويلا نحيفا معروق الوجه خفيف اللحية أهتم . وكان يصبح لحيته بالحناء والكتم .

قال عمر : ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها وأحسنها أحلاما . وأثبتها جنانا . ان حدثوك لم يكذبوك وان حدثتهم لم يكذبوك : أبو بكر . وعثمان وأبو عبيدة .

لما ولي عمر الخلافة عزل خالدا عن إمارة الجيش وولى أبا عبيدة وبعث له ، فكتب أبو عبيدة الخير عن خالد عشرين ليلة . فقد كان خالد يقود معركة دمشق وآثر أبو عبيدة أن يخفى عنه حتى يتم الفتح . حتى علم منه خالد بالامر فاتجه اليه وفاتحه فيه . وقال له : يغفر الله لك . جاءك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمنى . وأنت تصلى خلفي والسلطان سلطانك : قال أبو عبيدة : ما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل وان ما ترى سيصير الى زوال . وعندما بعثه الرسول مع عمر بن الخطاب في غزوة السلاسل . نجاه عمر عن الصلاة وهو الامير . فقال له : ان رسول الله أوصى أن نتطاول فوالله لان عصيتنى لأطيعنك .

وعندما فشا طاعون عمواس في الجنود في الشام أراد عمر أن .

يستقدمه معه فبعث اليه يقول : انه قد عرّضت لى اليك حاجة أريد أن
أشأفك فيها فعزمت عليك اذا نظرت فى هذا الكتاب ألا تضعه من يدك
حتى تقبل الى .

ونظر أبو عبيدة فى الكتاب وابتنس وقال : ان أمير المؤمنين يريد أن
يستبقى ما ليس بباقي . ولم يلبث أن كتب له :

يا أمير المؤمنين انى قد عرفت حاجتك الى وانى فى جند من المسلمين
لا أجد بنفسى رغبة عنهم . فلن أريد فراقهم حتى يقضى الله فى وفيهم
أمره . فحللتى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى .

ولما أحس بدنو أجله : قال اقرئوا أمير المؤمنين السلام وأعلموه
بأنه لم يبق من أمانتى شيء الا وقد قمت وأديته .

هذه ملامح من صورة « أبى عبيدة » تعطى مفتاح شخصيته .

وليس أدروع تصويرا لشخصيته من عبارة رسول الله عندما قدم
وفد نجران على النبى . قالوا : يا محمد ابعت لنا من يأخذ الحق ويعطينا

قال : والذى بعثنى بالحق لأرسلن معكم القوى الأمين . ورددها
ثلاثا . ثم قال : قم يا أبا عبيدة . ان لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة
هكذا كان الرسول يصور أبا عبيدة ويضعه بين أصحابه .

روى أبو بكر الصديق . قال : خرج رسول الله ونحن نتحدث
فسكتنا . فظننا كنا فى شيء كرهنا أن نسمعه . فسكت ساعة لا يتكلم .
ثم قال : ما من أصحابى الا وقد كنت قائلا فيه لا بد : الا أبا عبيدة .

وتاريخ أبى عبيدة فى الاسلام يعطى صورة رائعة لهذا الرجل الذى
كان موضع ثقة رسول الله وتقديره . فقد كان من صفوة المهاجرين الى
الحبشة والذين اشتركوا فى بدر وأحد . وحمل راية الرسول يوم فتح
مكة . وثالث ثلاثة يوم السقيفة . وهو الذى قتل أباه يوم بدر حيث كان
فى صفوف المشركين اذ تصدى عبد الله الجراح لابنه أبى عبيدة . فأعرض
عنه أبو عبيدة . فتصدى له بعد ذلك مرات واندفع فى الرابعة يضربه
بالسيف . فقتل أبو عبيدة أباه . وكان هذا أدروع صور الايمان بالدين
الجديد أن يقتل الابن أباه فى سبيل العقيدة . وقد نزلت الآية « لا تجد
قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . ولو كانوا
آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الايمان
وأيدهم بروح منه » .

وثبت « أبو عبيدة » حول النبى فى أحد . فقاتل عن يمينه وعن
شماله . ويوم السقيفة قدمه عمر بن الخطاب وقال له : امدد يدك بأبيك
فانت على رسول الله أمين هذه الأمة .

فانبرى له يقول : أتبايعنى وفيكم ثمانى اثنين ؟ أتبايعنى وفيكم
«الصدىق ؟

فلما تكلم مدح الانصار وذكر فضلهم . فلانت نفوسهم وكان ذلك
عاملا من عوامل كسب الموقف .

ولما فتح حمص أخذ أهلها بالرأفة والرحمة . فلما جلا عنها أعاد
إلى أهلها الحرية . وقال يا أهل حمص : قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع
عنكم فأنتم على أمركم ولا حاجة لنا في أموالكم .

ولما ولي أبو بكر خالدا قتال العدو : قال لأبي عبيدة : قد وليت
خالدا قتال العدو في الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع فاني وليته عليك .
وأنا أعلم أنك خير منه . ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك»

فلما توفي أبو بكر أعاده عمر وولاه القيادة العامة وعزل خالدا عنها
وأقام أبو عبيدة في الشام يؤسس الحياة ويبني المجتمع ويضع روحه
القوية في الانشاء . وله من طابعه النفسي في الزهد والتقشف والترفع
عن الدنيا ما يوجهه إلى الخير . وقد ظل بين جنده الذي يحبه حتى جاء
طاعون عمواس . وبدأ يتفشى في الجند وعلم عمر بالامر فأراد أن يحتال
ليرده إلى الحجاز فتنبه لرغبة عمر واعتذر عنها .

وجاء عمر يزوره ويطلب إليه أن يعود معه فروى له حديث رسول
الله عن الوباء . وانه اذا كان في أرض فلا تدخلوها . ولا تخرجوا منها
اذا كنتم بها . وعاد عمر وهو يبكي ويودعه الوداع الاخير . فلما مات لم
يجدوا انه يملك من حطام الدنيا غير ترسه ودابته وسيفه وكان يردد
دائما حين يسأل عما لو اتخذ متاعا . بأن ذلك سيبلغه الغاية .

ولما أدركت الوفاة عمر بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي هتف في
سكراته يقول : لو أدركت أبا عبيدة لاستخلفته ، وما شاورت . فاذ
سألني الله عنه قلت استخلفت أمين الله وأمين رسوله .

محمّد بن القاسم النّفقى

هذا فتى فى السابعة عشرة من عمره ملأت نفسه حماسة الايمان وحرارة اليقين وفروسية الفتح فذهب الى عمه الحجاج يطلب منه أن يوليه أمر الحرب .

لقد هزته أنباء الهزيمة التى منى بها من ساروا الى ثغر الهند فقد قتل ابن نبهان وبديل . وهو يريد أن يأخذ بثار هؤلاء الفرسان البواسل . ويمضى مندفعاً الى هذا الوجه غازياً فى سبيل الله فاتحاً .

ولقد كان « محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل النّفقى » من قوم عرفوا بالدهاء وسعة الحيلة ومضاء العزيمة . وقد كان فارساً وشاعراً ، عرف برجاحة العقل والحلم واجتذب قلوب كل من عرفه وأثر عنه قوله « انصفوا الناس من أنفسكم . وإذا كانت قسمة فاقسموا بالسوية . وراعوا فى فرض الخراج مقدرة الناس على ادائه . ولا تختلفوا ولا تنازعوا فتشقى بكم البلاد »

وقد عقد له الحجاج وأرسل معه ٢٠ ألفاً من المقاتلين منهم ستة آلاف فارس من جند الشام فمضى بهم فى البر بينما كان الاسطول يحمل المؤن وعدد الحرب الثقيلة فى البحر محاذياً لهم وقد حمل معه خمس مجانيق ضخمة يلعب أكبرها بالعروس .

خرج ابن القاسم من شيراز عام ٩٠ هـ مشرقاً متتبّعاً ساحل البحر يطوى القفار يملؤه الأمل فى مجد فتح وجهاد ، واجتاز صحارى كرمان ومكران وبلغ الديبل وكان الاسطول قد لحق به . فما أن بلغها حتى خندق وركز الرماح ونشر الاعلام وأنزل الناس على راياتهم ونصب منجنيقه الضخم « العروس » وراح يضرب الصنم الكبير الذى أقامه أهل الديبل فحطمه وكان الحرس فيها خمسمائة رجل وكان (اليد) العظيم عليه دقل طويل وعلى الدقل سارية ضخمة عليها راية حمراء اذا هبت الريح اطافت بالمدينة وهى تدور . وكان أهل الديبل يعتقدون أن صنمهم لا يمكن لائى قوة أن تقترب منه . فما أن بدأ الصنم يتحطم حتى تحطمت معه قلوب العابدين وأحسوا بالهزيمة تملأ نفوسهم ، ولما أحس أبو القاسم بأنه على وشك النصر هاجمهم فارتدوا الى داخل الصنم .

وأصعد عليه على سلم منصوبة واحداً من رجاله الابطال ففتح حصن الصنم . ومضى المسلمون يضربون فى خصومهم حتى هزموهم واختلط للمسلمين مجداً وبنى لهم مدينة وأنزل أربعة آلاف منهم وسار فى طريقه

مع النهر يريد « داهرا » عظيم السند وجيشه فاستولى فى طريقه على برون . وفتح صهبان وسلمت له سدوستان .

وعبر ابن القاسم نهر مهران حيث واجه الملك داهرا وجيشه على ظهور الفيلة ووقع صدام بين خيول العرب وفيلة الهنود . فكانت الخيول أثبتت فى هذا المجال .

وما أن بدأ القتال حتى هربت الفيلة بعد أن واجهتها قذائف النفط الملتهب فهاجت وأحرقت هوادجها . وألقت من كان على ظهورها من الجند تحت سنابكها . وقتل الملك داهرا . وتمزق جيشه وتراجعت فلوله الى مدينة (برهمناباد) نفسها . ومن ثم زحف الى مدينة الرور فحاصرها ثم دانت له .

واستولى « محمد » على مدينة راور ثم زحف الى « الرور » فحاصرها واستولى عليها ثم قطع نهر بيامس الى « الملتان » أعظم بلدان السند العليا وهكذا أتيح لمحمد بن القاسم فى هذه السنوات الست أن يحصل على هذا النصر المؤزر .

وقد علت سنه فيبلغ الثالثة والعشرين من العمر فهابه القوم وعلت مكانته ولمع اسمه . وبدأ كأنما يكتب له المستقبل صفحة رائعة . ولكن القدر كان له بالمرصاد .

لقد قفل محمد الى الجنوب عام (٩٥) هـ مستوليا على مدن أخرى آخرها مدينة (الكيرج) التى استولى عليها . ثم جاءت الانباء بموت الحجاج ثم مات الوليد ابن عبد الملك الذى كان يكره الحجاج وأهله . وسرعان ما لحقه من الحجاج طرف من الأذى ولم يذكر له فضله فى الفتح والجهاد لقد كان هناك خلاف بين الحجاج وبين سليمان بن عبد الملك . ولكن ما ذنب يظل السند ، وقد كان بعيدا عن مسرح الحوادث هناك فى الفتح لرفع راية الاسلام .

وجاء الأمر بعزل ابن القاسم عن إمارة السند . وقدم الوالى الجديد: يزيد ابن أبى كبشه فأخذ ابن القاسم بعنف ، وقيده فى الاغلال ، ووضع فى الحبس والحديد فى يديه ورجليه .

ولكن أهل السند الذين أحبوا ابن القاسم تأثروا من أجله ، وبكوا عليه فقد أحبه وأكبروا رجولته وبطولته . وكانوا أشد ما يكونون جزعا من أجل سجنه .

ولكن خصوم الحجاج أرادوا امعانا فى التنكيل أن ينقلوه الى بلده الى مدينة « واسط » . ليظل هناك سجيناً فى أصفاده . يسام العذاب كل ليل وكل صباح . وقد تلقى السجن والعذاب صابرا محتسبا وكان فى محنته شجاعا صامدا .

وانتهى الامر بأن ألصقت به تهمة أخذ بها وقتل . ويقال انه وضع فى أديم بقرة ثم خيط عليه الاديم وحمل الى دمشق ففاضت روحه .

وهكذا شهدت الهند لرجلين : الاسكندر المقدونى الذى فتحها فى القرن الرابع قبل الميلاد . ومحمد بن أبى القاسم الثقفى فى القرن الأول الهجرى .

✽ قال عبد الرحمن بن عوف أنه الأسد في برائه .

سعد بن أبي وقاص

قال أبو المنهال : سأل عمر بن الخطاب : عمرو بن معد يكرب عن خبر سعد بن أبي وقاص . قال : متواضع في خبائه . عـربى نمرته (كسائه) أسد في تاموره . يعدل في القضية ويقسم بالسوية . ويبعد في السرية . ويعطف علينا عطف الأم البرة . وينقل إلينا حقنا نقل الذرة .

كان « سعد » من الرعييل الاول من المسلمين الذين آمنوا بالدين وصاحبوا الرسول في غزواته ومشاهدته جميعا مما استحق معه أن يكون من العشرة المبشرين بالجنة ولقد وقف سعد في صف بطولة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وأبي عبيدة بن الجراح فهو صاحب القادسية والمدائن وهما من أعظم مواقع الفتح الاسلامي وأبعده أثرا في تحطيم دولة فارس وسحق إحدى القوتين الضخمتين التي واجهت الاسلام وعرف منذ صباه المبكر بقوة المراس وصلابة العقيدة يغلب عقله عاطفته حتى انه عندما أسلم اختلف مع أمه التي عارضته في دينه الجديد وبلغ من أمرها أن قالت له :

يا سعد لتدعن دينك هذا ، أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت . فقال لها : والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفسها نفسا ما تركت ديني هذا لشيء . وكان الرسول يحبه ويقول عنه انه خاله . وهو أول من رمى بسهم في الاسلام ومن الذين دافعوا عن النبي في أحد في بطولة رائعة حتى استحق قول النبي : أرم سعد فذاك أبي وأمي .

وقد وصف بأنه صوام قوام ، صدام اذا واجه العدو ، روى الاحاديث عن الرسول . وكان من أحد الناس بصرا . رأى ذات يوم شيئا يزول فقال لمن معه ترون شيئا قالوا : نرى شيئا كالطائر . قال أرى راكبا على بعير . ثم جاء بعد قليل راكب على بعير .

ولعله مما لا يقع لقائد من قادة الجيوش أن يقود معركة ضخمة وهو منبطح على وجهه وفي صدره وسادة . يشرف على الناس في ميدان المعركة ويرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه . ولكن ذلك ما وقع لسعد في معركة « القادسية » التي انتصر فيها المسلمون انتصارا ساحقا .

ذلك انه لما ولي عمر الخلافة وزاد الاضطراب في بلاد فارس كتب المثنى الى عمر ودعاه لغزو العراق وأخذ عمر يسأل عن يرسل . وكان

يرآود نفسه أن يخرج هو لولا رده الصحابة واختار له عبد الرحمن بن عوف : سعدا وقال حين اختاره : انه الاسد في برائه وكانت وجهته من الحجاز الى الكوفة يتسمع الاخبار ورسل عمر توافيه حتى يصل القادسية بباب العراق .

وفصل سعد عن المدينة في أربعة آلاف ثم أمده عمر بثلاثة آلاف . هنالك عرف أن المشنى قد مات من جراحه في يوم الجسر وقد ترك له وصية .

وكان عمر قد وجه سعدا وهو خارج الى الغزو في عبارات تدل على مدى فهم عمر لنفسيات رجاله : يا سعد . لا يفرنك من الله أن قيل خال رسول الله . فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الا طاعته . فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء .

ومضى سعد يقرأ وصية المشنى يدعوه فيها ألا يقابل عدوه من أهل فارس اذا استجمع أمرهم . وملؤهم في عقر دارهم . وأن يقابلهم في حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب . وأدنى مدرة من أرض العجم فان يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وان تكن الاخرى فاعوا الى فئة ثم أن يكونوا أعلم بسبيلهم . وأجراً على أرضهم أن يرد الله السكره عنهم .

وبعث سعد الرسل الى رستم برسائل يدعوه فيها الى الاسلام او الجزية أو الحرب . وكان الفرس يضحكون من نبل العرب وخيولهم العجفاء ، ويسخرون منهم .

وتزاحف الفريقان فلما عاود المرض سعدا قال احملوني وأشرفوا بي على الناس . . ثم أرسل سعد الى الناس يقول : اذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع نعالكم . فاذا كبرت الثانية فتهيئوا . فاذا كبرت الثالثة فشدوا النواجد على الاضراس . ثم أمر من يقرأ سورة الجهاد فقرئت في كل كتيبة .

وكبر سعد ، والتقى الجيشان . ثلاثون ألفا من المسلمين يواجهون مائة وعشرين ألف راكب . ودارت رحى المعركة ثلاثة أيام . قاتل المسلمون مستبسلين في اليوم الاول حتى اذا كان صباح اليوم التالي كان القعقاع ابن عمرو يحث السير في ألف من الجند وصلوا من الشام لنجدة جيش العراق ، فلما اقترب من القادسية قسم رجاله عشر فرق . وعهد اليهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التي سبقتها قد اختفت عن البصر . ثم سار هو على رأس الفرقة الاولى ومضت الفرق تدخل حومة المعركة متتابعة ، وكلما قدمت فرقة كبر القعقاع وكبر الناس فالقى ذلك في روع الفرس ان المدد لا حد له . وكانت الفيلة التي قدمها الفرس في اليوم الاول قد تكسرت توابيتها واختفت في اليوم الثاني ثم لم تلبث في اليوم الثالث أن عادت الى فتكها . فسأل سعد جماعة من الفرس الذين أسلموا عن مقاتلتها فقالوا : انها شرافها وعيونها فارسل الى القعقاع وعاصم ابني عمرو يقول اكفياني الفيل الابيض . وكان الفيل بازاها . وبعث الى حمالة

والريبل وكانا من بنى أسد يقول اکتیانى الفيل الاجرب . وكان بازانهما .
وكانا أشد الفيلة ضراوة والفيلة الأخرى تتبعهما .

وترجل القعقاع وعاصم فوضعا رمحيهما فى عينى الفيل الابيض .
ثم ضربه القعقاع بسيفه . ثم اندفع الفيل الاجرب فالقى نفسه فى البحر .
فتبعته الفيلة وألقت من كان يركبها وولت مدبرة .

وفى الليل وبعد أن توقف القتال أرسل سعد طليحة وعمرا فى
جماعه من الناس يحرسان مخاضة بأسفل المعسكر خشى سعد أن ينفلت
منها الفرس . فلما ذهبوا لم يجدوا أحدا فرغبا أن يخوضاها . ولم يلبث
القعقاع أن كبر أربع تكبيرات وارتاع الفرس واندفع العرب وزاحفوه من
غير أن يستأذنوا سعدا .

واطل سعد من مجلسه فلما رأى القعقاع يزاحف الفرس . قال :
اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له وإن لم يستأذننى . وكان المقاتلون
لا يتكلمون وتقدم القتال مع الليل وبات الجيشان فى المعركة ولم يغمض
لسعد جفن وهو فى مكانه منقطعا ليس معه الا الضراعة والدعاء . ثم كشف
الصبح عن نصر العرب . . وتسمى هذه الليلة « ليلة الهرير »

واستمرت الحرب حتى اذا كان ظهر اليوم الرابع انفرجت صلوف
الفرس بعد أن اضطربت . وهبت ريح عاصفة أطارت طيارة « رستم »
من سريره فهوت فى العتيق . وزحف القعقاع الى السرير مع بعض جنوده
فبلفوه فاندفع رستم فالقى بنفسه فى النهر فرآه هلال بن علقمة وكان
يعرفه فاقتحم النهر وراءه . ثم خرج به وضرب جبته بالسيف حتى
قتله . ثم صعد فوق سريره وهو يصيح : قتلت رستم ورب الكعبة .

فلما تأكد الفرس من موت قائدهم وهرب الهرمزان تحطمت
معنوياتهم ، فاندفعوا يعبرون النهر على الردم . ولكن الردم انهال بهم
فسقط فى النهر منهم ثلاثون ألفا وتم النصر لسعد وصحبه .

وموقف آخر لسعد يدل على براعته الحربيه فقد تقدم العرب حتى
اذا بلغوا نهر دجلة وقفوا ينظرون فى بحر عجيب - حيث كان على الشاطئ
الآخر « ايوان كسرى » فى ضخامته وعظمته . . وسحرهم مرأى المدائن
أعظم السحر . وكانوا قد سمعوا عن هذا البناء الضخم الذى يقف قبالتهم
ليس بينهم وبينه الا عبور هذه المخاضة .

ووقف سعد يفكر قليلا ثم عزم على قطع هذا البحر . وكان العرب
لا يعرفون البحر وليس لديهم من ناقلات يعبرون عليها . هنالك دفع سعد
ستمائة من رجاله على رأسهم عاصم بن عمرو على خيولهم الى البحر يحمون
القراض فى كتيبة أطلق عليها كتيبة الاهوال . وكان عاصم يقول
للمترددين : أتخافون هذه النطفة . ثم رأى الفرس وهم يتهيئون للقاء
العرب هناك صاح فى أصحابه : الرماح الرماح . اشرعوها وتوخاوا
العيون . وارتدت خيول الفرس امامهم ولم تصب كتيبة الاهوال بأذى .
ورأى سعد تحكم أصحابه فى قراض المدائن فأمر فرسانه فاندفعوا جميعا
ألوفاً مؤلفة الى لجة النهر . وامتلا النهر بالخيول فلم يكن مأوئاً فى هذا

الساعة ليرى • وقد وصف هذا اليوم في وقائع المسلمين بأنه معجزة اذ ساروا في النهر بخيولهم كأنما يسيرون في البر • وخرج الجيش في الماء تنفض خيوله أعرافها وتسهل •

ولم يجد العرب في المدائن أحدا ونزل سعد قصر الاكاسرة • واتخذ الايوان مصلى • ووجد بالخزائن ثلاثة آلاف ألف ألف درهم •

فلما بلغت أنباء الفتح عمر قال لسعد : قف مكانك ولا تتبعهم واقنع بهذا واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها • ولا تجعل بيني وبينهم بحرا فاخبط سعد الكوفة وعسكر جند العرب في الخيام ثم تحولت الى بيوت من القصب •

وقد جعل عمر سعدا من أصحاب الشورى الستة • ووقف موقف الحياء في أيام فتنة عثمان وزهد في الخلافة وانقطع للعبادة • ولم ينجح معاوية في كسبه الى صفه •

وقد عاش حياته متواضعا بالرغم من ثرائه الضخم • وقد أعطته مواقف القتال حكمة وحنكة وخبرة • وعرف بالعطف على جنوده حتى أخلصوا له وكانوا يفقدونه •

وهكذا استطاع سعد أن يكتب لنفسه صفحة بطولة في الحرب والسلم على السواء • حيث انصرف عن مطامع الملك ونفض يده من المغانم واستقام على مثل عال من السمو قل أن نجد له نظيرا •

ولما جاءت الوفاة دعا بجبة له من صوف وقال كفنوني فيها فاني كنت لقيت المشركين يوم بدر وهى على • وانما كنت أخبئها لهذا • ومات عن ٧٢ سنة عام ٥٤ هـ •

* وامثنيه .. ولا مثني للخيال اليوم

المثنى بن حارثة

هذا فتى من فتيان العرب وبطل من أبطال الاسلام . وعلم من اعلام الفتح بدأ جهاده فى سبيل عقيدته قبل أن يكتف بالجهاد . ولكنه القلب المؤمن والروح الصادقة والنفس المتطلعة الى المجد الراغبة فى رفع كلمة الاسلام واذاعتها فى كل مكان . ورفعها فوق كل كلمة .

قدم على النبى فى وفد من قومه فى العام العاشر للهجرة . ثم عاد بعد أن أسلم ينتظر الساعة التى يتاح له فيها أن يعمل . فما أن أخذت جيوش العرب تندفع فى عهد ابى بكر لتحفظ الاسلام من الردة . حتى كان المثنى يغير على أطراف فارس وأنصارها من العرب . ولا بلغت أخبار فروسيته وانتصاراته الخليفة قال عمر . من هذا الذى تأتينا وقائمه قبل معرفة نسبه ؟ فقال له قيس بن عاصم : اما أنه غير حامل الذكر ولا مجهول النسب ولا قليل العدد ولا ذليل الفارة : ذلك المثنى بن حارثة الشيباني .

وقدم المثنى على أبى بكر فقال له : يا خليفة رسول الله أبقنى على قومى فان فيهم اسلاما أقابل بهم فارس . واكفيك أهل ناحيتى من العدو وعاهد المثنى الخليفة الاول على أن يكفيه أهل ناحيته من العدو فقبل منه أبو بكر .

وعاد المثنى فكانت له صولات حققت له الظفر وسمعت له العرب فأطاعوا وأذل الله المشركين . عندئذ بعث يطلب من أبى بكر مددا فأرسل له « خالد بن الوليد » قائدا عاما ليضم المثنى اليه . ولم يزعج المثنى ذلك أو يضعف من ايمانه وحماسته وقوة عارضته بل عمل مع خالد وشارك فى جميع وقائعه .

ورلى قيادة الجناحين فى كل المواقع التى قام بها الجيش الاسلامى فى العراق فقد نزل خالد فى النجاف (قرب البصرة) وأرسل الى المثنى يأتيه . وكان مع خالد عشرة آلاف ومع المثنى ثمانية آلاف وقد اشتركا معا فى موقعة ذات السلاسل وفتح خالد الحيرة . وراح يمد فتوحه الى الشمال فسار الى الانبار على الفرات فعين الثمر . ثم عن للخليفة أن يرسل خالد الى الشام مددا لمن هناك وأن يغلف المثنى على جند العراق (١٣ هـ)

وترك خالد للمثنى نصف الجيش وهو حوالى ٩ آلاف مقاتل . واتخذ

«المثنى الحيرة مركزا لقيادته • وعاصمة للارض التى استولى عليها من
الفرس • وبث عيونونه من حوله حتى لا يؤخذ على غرة •

ولكن كسرى الفرس (شهريزان بن اردشير) لم يلبث أن وجه
جيشا فى عشرة آلاف فخرج المثنى للقائه • والتقى الفريقان ببابل فاقتتلا
قتالا شديدا • وكان الفرس قد جلبوا معهم فيلا كبيرا أخذ يخيف المسلمين
فانتدب له المثنى نفسه وجماعة من رجاله فقتلوه وانهزم الفرس وتبعهم
المسلمون الى المدائن يضربون أقفيتهم •

وذهب المثنى مرة أخرى الى المدينة ليلقى الخليفة الاول ويحدثه
بشأن زيادة قوته ويطلب اليه أن يضم اليه المرتدين من العرب الذين
عادوا الى الاسلام •

ووجد أبو بكر على فراش الموت فلما استمع اليه قال :

انى لأرجو أن أموت فى يومى هذا فلا تمسين حتى تندب الناس
مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم • وقد رأيتنى
توفى رسول الله وما ضعفت • ولم يصب الخلق بمثله • وإن فتح الله على
أمرء الشام فاردد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وجنده
وكان أول عمل بدأ به عمر بعد وفاة أبى بكر هو ندب الناس مع
المثنى •

قال عمر للناس : ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجمة • ولا
يقوى عليه أهله الا بذلك • أين الكبراء والمهاجرون عن موعود الله • سيعروا
فى الارض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها •

وقال المثنى للناس : لا يعظمن عليكم أمر الفرس • فانا قد تبجحنا
بريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم • ولنلنا منهم •
واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها •

وقال عمر للمثنى : اسمع من أصحاب رسول الله واشركهم فى الامر
ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فانها الحرب • والحرب لا يصلحها الا الرجل
المكيث الذى يعرف الفرصة والكف •

ولم يلبث المثنى بعد عودته أن أعد العدة لتأهبات الفرس • كما بث
العيون وجاءته الاخبار باتجاه الفرس الى العمل • هنالك قرر أن يبادئهم
وأن يقرر أن يقوم بالهجوم بدلا من الدفاع • لذلك خرج من الحيرة ونزل بحقان
لثلا يؤتى من خلفه • وأقام حتى قدم عليه أبو عبيد ، الذى جعله المثنى
على الحيل فى جيشه • وكانت معركة النمارق شديدة قاسية •

وتواصل هجوم الفرس فى جيش وراء جيش والعرب يردونهم بقوة
وفى معركة « البويب » عمل المثنى بقوة وحصافة وحكمة • أرسل
له « مهران » قائد الفرس وهو بازائه على الفرات يقول :

— اما أن تعبر إلينا • واما أن نعبر اليك •

فعبّر مهران فنزل شاطئ الفرات وعبأ المثنى أصحابه . وأمرهم بالافطار . (وكانوا في رمضان) ليكونوا أقوى على عبوهم فأفطروا . وأقبل الفرس في ثلاثة صفوف وركب المثنى فرسه « الشموس » وقد سمي بذلك للينه . وكان لا يركبه الا اذا قاتل . وكان دائما أول الصف ، وأسرع الى القتال من جنده . وكان جنده يعلمون أنه يضحي بنفسه في سبيلهم .

وحمل المثنى على « مهران » فأزاله عن مراكزه حتى دخل في ميمنته ثم خالط الجيشان الواحد منهما الآخر . وكان المثنى قد أمر أصحابه بقوله : اذا رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه والزموا صفوفكم واغنموا عمن يليكم .

واشتد ضغط المسلمين على قلب الفرس . وقتل « مهران » قتله غلام نصراني واستولى على فرسه . وتمكن المثنى من كسر قلب الفرس فأزاله عن موضعه وأفنى من كان فيه . ودفع هذا الحماسة في قلب العرب فاندفعوا ليسحقوا جيش الفرس الذي فر منهزما الى الجسر .

وسبقهم المثنى الى الجسر ، وأخذ طريق الفرس اليه فتفرقوا . وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم .

ولكن المثنى أصيب في هذه الغزوة . ومات من اثر جراحاتها .

وقد قتل كل رجل من العرب في هذه الموقعة عشرة من الفرس . وتبع المسلمون الفرس الى الليل وطاردوهم في اليوم التالي . وانتصر العرب ببراعة المثنى ولما سار سعد الى المثنى . كان المثنى يسلم الروح . فقد توفي قبل قدوم سعد بسبب جراحه . ولكنه كان قد ترك وصيته كاملة الى سعد ضمنها خلاصة خبرته وتجاربه في أمر العجم ويقدم له خطة كاملة للعمل كانت هي النور الذي أضاء الطريق لسعد .

ومات المثنى في أوائل السنة الرابعة عشرة للهجرة وتزوج سعد زوجته التي وقفت بجوار سعد في غزوة القادسية فلما رأت ميمنة الخيل في جيش المسلمين تنحرف هتفت صارخة : وامثنياء ولا مثنى للخيل اليوم فلطمها سعد بيده .

وفي كل معارك المثنى كان قادرا . تأثر بطريقة خالد في الحرب . وكان عقلية عسكرية جبارة ، وله قدرة على العمل الخاطف في اللحظة الحرجة : فقد أصلح الجسر في احدى المواقع وحمل المسلمين من أن يلقوا بأنفسهم في الفرات . وقال للناس : أنا دونكم على مهل ولا تدهشوا ولا تخافوا . وظل المثنى واقفا فلم يعبر الا آخر الناس .

كما وصفه المؤرخون بأنه كان صاحب مكيدة وحيلة وحسن تدبير عن خبرة وتجربة . وكان الى ذلك نافذ الرأي قوى الارادة .

وهو في طول حياته يعطى صورة الرجل المؤمن المكافح الجلد الذي

لا يمل الكفاح والجلد في سبيل فكرته وإيمانه . وهو الى ذلك الفارس
المغوار المدرب على الحرب والمواقع .

وعندى أن المثني هو الذي حرض أبا بكر على فتح العراق وفارس
ولولا ثقة المثني التي ملأت نفس الخليفة الأول لما أقدم على ذلك ، فقد
كان المثني رجلا شجاعا بأسلا يملأ النفس بصدق قوله ويعول عليه ولا
يذهب بقوله مذهب الخيال أو المبالغة والتهويل .

وأية عظمة شخصيته أن أبا بكر كان يريد أن يوليه ولكن عمر ولى
أبا عبيدة لأنه أول الناس انتدابا ومع ذلك فإن شيئا من ذلك لم يكن
موضع تفكيره أو مصدرا لتغير نفسه .

انه متى يسر الله فتح بقية الساحل أوصيت وودعت وركبت البحر
الى جزائره ، وتمقبت الفرنج فيها .

صلاح الدين الأيوبي

يقف صلاح الدين الأيوبي على قمة من قمم تاريخ الاسلام وجهاد
العرب في سبيل الحرية والكرامة ومقاومة الاستعمار . فان جانباً خطيراً
من تاريخ الأمة العربية يرتبط باسمه ارتباطاً ضخماً . ذلك هو احتلال
الصلبيين للساحل الشامي وانتصار صلاح الدين عليهم في معركة حطين
ثم احتلاله لبيت المقدس وما ارتبط بذلك من وفاء ورحمة ذهل لها الفرنجة
وأكبروها من البطل الاسلامي وهو في ذروة انتصاره .

وتعطي معركة حطين وما بعدها صورة صلاح الدين وترسم ملامح
شخصيته بأقوى ما يمكن أن تصور فقد كان محارباً شجاعاً بالغ الشجاعة
خبيراً بفنون الحرب وضروبها وهو في المعارك أقسى ما يكون نقمة على عدوه
فاذا انتهت الحرب كان مثلاً من الرحمة والعدالة والوفاء لخصومه الى
أبعد الحدود .

فقد استطاع صلاح الدين أن يضطر الصليبيين الى أن يحاربوا في
وقت لم يكونوا مستعدين فيه للحرب ، اذ أمسك بيده عنصر المبادأة
واختار زمن المعركة وموقعها . وقد احتال لذلك فأخرجهم عن مواقعهم
ليحاربوه في منطقة جرداء خالية من الماء عندما هاجم طبرية ليغريهم
بالإسراع لنجدتها فتركوا مواقعهم الحصينة واندفعوا الى حيث أراد لهم
صلاح الدين الهزيمة الساحقة فقد تقدم الجيش في أرض لا ماء فيها ولا
زرع فقاسى الأهوال والشدائد ، ولقى المشاة أعياه شديداً وتخلفوا عن
الفرسان في الوقت الذي كانت قوات صلاح الدين تمطرهم وابلاً من
السهام .

وهجم العرب على خيمة الملك - لوزنيان - فسقط أسيراً في قبضتهم
كما أسر أرناط ومقدم الداوية وكثيراً من الفرسان . وقتل صلاح الدين
(أرناط) بيده جزاء وفاقاً لما اقترفه من آثام وقضى على الفرسان .

وتقدم صلاح الدين فأخذ يفض حصون الصليبية التي لم تعد لها
قيمة حربية بعد القضاء على الفرسان فاستولى على عكا (٥٨٣) ونابلس
وقيسارية وصفورية ثم بيروت والرملة وعسقلان ☞

ثم حاصر صلاح الدين بيت المقدس (رجب ٥٨٣ - سبتمبر ١١٨٧)

حصاراً دام أربعة عشر يوماً ثم تمكن العرب من عمل ثغرات فى الاسوار
فسلمت المدينة .

هنالك أحس صلاح الدين بأن الله قد أتم له النصر . فوقف مناديه
يوماً كاملاً من مطلع الشمس إلى مغربها ينادى : هل من فقير فنؤويه أو
عاجز فنعفيه من فدية يؤوده دفعها أو يعجزه الحصول عليها ؟

وسمح للفرنجة أن يغادروا المدينة فى حمايته دون أن يصيبهم
مكروه فيما يحملون معهم من غنائم أو أموال .

وخرج البطريق بمال كثير لم ينفق منه شيئاً فى اقتداء يتيم أو
مسكين . ورآه العرب فأشاروا على صلاح الدين أن يأخذ ماله فرفض فى
شدة وقال : لا . ما كان لنا من حق فى ماله الا العشرة دنائير . وغيرى
من يغمم المال عن طريق الغدر . دعوه يخرج به .

ذلك هو صلاح الدين فى قمة شجاعته الحربية وقمة وفائه .

بل أنه عندما مرض ملكا الانجليز والفرنسيين فى حصار عكا أرسل
اليهما البلج والفاكهة والطبيب . وأهدى الى « ريتشارد » جوادين عندما
رآه يقود جموعه راجلاً .

ولكن هل استطاع صلاح الدين أن يحقق هذا النصر على الفرنجة
بعد مائة عام من احتلالهم للساحل فى سهولة ويسر وبساطة ؟

الحق ان صلاح الدين بذل جهوداً ضخمة متصلة حتى حقق هذا
النصر . وكان أول عمله أن وحد الجبهة كلها وكتلها المقاومة الصليبيين
وقضى على الامراء المتنازعين .

وقد تنقل صلاح الدين فى بلاد الشام يدعو الى الوحدة مؤمناً بأن
الشام هو أصل بلاد الاسلام . وقد زار الرها وبرقة ونصيبين .

وقد قاوم الصليبيون هذا العمل بجهود مضاعفة وبذلوا فى سبيل
معارضتها وتحطيمها كل ما لديهم من أموال واغراءات . فقد أسرع
الصليبيون فعقدوا مع بعض أمراء الموصل وحلب اتفاقات للوقوف فى وجه
تكوين جبهة عربية موحدة . ولكن صلاح الدين استطاع عام (٥٧٩ هـ)
أن ينجح فى جمع الشمل وأن ينسف كل الصخور التى كانت تقف فى
سبيل ذلك .

وكان الشهيد نور الدين محمود هو الذى بدأ هذا الاتجاه نحو
الوحدة العربية الاسلامية ومضى فيه شوطاً . فلما توفي عام (١١٧٤ م)
لم يكن فى المنطقة كلها من يصلح لحمل هذه الرسالة والاندفاع بها خيراً
من صلاح الدين فى طموحه وجرأته ووجوده على رأس دولة ضخمة من
دول العرب كمصر .

وقد رأى صلاح الدين من المصلحة مهادنة الصليبيين حتى يتم له
التكتيل العربى وزيادة قوات الجيش ومدما بالاسلحة .

وقد حاول أرناط صاحب الكرك التعرض للقوافل . ووقف عقبة في سبيل التجارة بل عمد الى العمل على الاستيلاء على البحر الاحمر لولا أن سحق قواته أحد قواد صلاح الدين (حسام الدين لؤلؤ) في يناير ١١٨٣

وقد أكسبت صلاح الدين حياته في بلاد نور الدين واشتراكه في شبابه في معارك كثيرة خبرة ضخمة ثم جاء الى مصر في الركب ، غير أن القدر كان يخبىء له الدور الاول . فهو ابن الظروف والاحداث التي وطدت له بعد ضربات سريعة مركزا ضخما في القاهرة لا يبارى وكان موت عمه أسد الدين وسيدته نور الدين وموت الخليفة الفاطمي على فترات متقاربة من العوامل الهامة الرئيسية التي اولته مكان الصدارة ودفعت به الى مكان القيادة .

كان أول ما اهتم له « صلاح الدين » هو نقل مصر الفاطمية الى السنة . ندعا للخليفة العباسي بدلا من الخليفة الفاطمي . وكان ذلك ولا شك من الامور الخطيرة التي تحتاج الى دراسة عميقة لنفسية الشعب . واعداد الخطة النبقة لمواجهة الموقف .

انما أراد « صلاح الدين » أن يقوم بأضخم انقلاب في مصر دون أن يريق قطرة دم واحدة . وقد وضع خطته على مراحل . فأبطل من الاذان ما أضافه الفاطميون اليه تمييزا لدعوتهم . وهي عبارة (حى على خير العمل) فلم ينكر الناس عليه ، ثم كلف الامام في المسجد الجامع الكبير أن يخطب الجمعة على أن يهمل من الخطبة الثانية ذكر العاضد الفاطمي . وانتظر حتى يرى أثر ذلك ووقعه في النفوس .

غير ان الظروف نفسها كانت في صف « صلاح الدين » فقد مات العاضد قبل الجمعة التالية . وقد تأثر صلاح الدين وود لو كان له الا يرفع اسمه من الخطبة .

ولكن الامر لم يمض بهذه السهولة . فقد جاءت المؤامرة عقب الاحداث اذ تجمعت عناصر الشر لتفتال « صلاح الدين » وأمكن احباط المؤامرة التي قادها عمارة اليمنى . وكانت ترمى الى اغتياله واستدعاء الفرنجة من صقلية والساحل والاستعانة بالقرامطة الاسماعيلية .

وقد تمكن أنصار صلاح الدين من دس بعض الموالين لهم للعمل مع المتآمرين حتى وصلت الى المرحلة الحاسمة . وعند ذلك وضع المسئولون يدهم عليها .

وتلت هذه المؤامرة : مؤامرة أخرى : مؤامرة مؤتمن الخلافة العبد النصى الذى كاتب الافرنج واتفق معهم . وقد وقعت المكاتبات في يد « صلاح الدين » في الوقت المناسب .

واستطاع صلاح الدين أن يدعم سلطانه في مصر برجال ثلثه :

القاضى الفاضل ، والمهندس بهاء الدين قراقوش ، والفقيه عيسى الهكاري .

وما أن انتهى « صلاح الدين » من القضاء على خطر الفاطميين حتى واجه خطر الفرنجة . ومضى يجاهد في سبيل الله صمد حياته حتى استشهد . وكانت غايته استرجاع بيت المقدس من أيدي الفرنجة ، وهو ان كان قد قضى قبل أن يقضى على الفرنجة نهائيا فهو قد مهد الطريق لمن جاء بعده وذلك لهم السبل لتحقيق هذه الغاية التي أتمها «الظاهر بيبرس» .

ولا شك أن معظم ما وصل اليه صلاح الدين من ظفر ونصر انما يرجع الى فضل نور الدين محمود الذي مهد له الطريق ورسم له الحطة وعبد له الارض . .

ولا شك أن طبيعة « صلاح الدين » النفسية ، كانت عاملا قويا من عوامل الظفر الذي كسبه في معارك الحرب ومعارك التمهيد والتوحيد والتجميع ، فقد تجمعت حوله الخصومات والعداوات . وحيكت حوله المؤامرات . حاكها خصومه في مصر في أذيال العهد الفاطمي . وحاكها خصومه من أمراء الشام . وحاكها الصليبيون حين اتفقوا مع الباطنية . وظل صلاح الدين صامدا للاحداث يؤمن بطريقه ، ويمضى على أسلوبه في الوفاء بوعده . ورفض في كل مرة أن يهاجم الفرنجة ، وهو على علم بما يدبرون من مؤامرات ، وكان يقول : انى لاستحى من الله أن يرانى ناقضا للعهد . وانى لاستحى من نفسى أن أكون كاذب الوعد . وما النصر الا من عند الله .

وما أن استقر الامر في مصر ، حتى خرج الى الشام ليرى امرها بعد وفاة نور الدين وليكون قريبا من موطن الاحداث . ولكنه لم يعد الى مصر بعد ، فقد شغله الجهاد حتى قضى وهو في قلب المعركة .

لقد كان العرب في حاجة الى شخصية قوية تجمعهم . وقد وجدوه في صلاح الدين . وسرعان ما اتسعت مملكته فامتدت من برقة الى اليمن الى النوبة الى ديار بكر والجزيرة وارمينية . وحق هنا تخلص بيت المقدس . وكان أمد المهادنة بينه وبين الفرنجة قد انتهى . وكانت ضربته في «حطين» من أقوى الضربات التي جاءت في وقتها . فقد حطمت مؤامرة ضخمة عقد الفرنج خيوطها .

وعندما انضمت اليه حلب وفرح المسلمون بهذا الفتح . بلغه نبأ وفاة أخيه فحزن لذلك أشد الحزن ولكنه حرص على الا يبلغ ذلك للناس حتى لا يفسد عليهم فرحهم وانتحي ناحية وأخذ يبكي . ولما سئل عن حلب قال :

والله ما سررت بفتح مدينة كسرورى بفتح هذه المدينة .

عامل الفرنجة خير معاملة . عندما وقع معهم شروط الرحيل عن القدس ، ترك لهم المدينة حتى لا يؤذى شعورهم . واعفى من الضريبة

سبعة آلاف .. عجزوا عن الدفع . وعندما أخذوا في بناء سور القدس اشترك في حفر الخندق ، ونقل الحجارة على عاتقه ولقد كان صلاح الدين غاية في الايمان بالله . يطيل الركوع والسجود . ويتوجه الى الله في الملهمات داعيا باكيا . يعتمد على سلاح دعاء السحر في محاربة خصومه . كما يقف منهم موقف الخلق والرحمة . فلا يجهز على جريحهم ولا يقتل من جاءه مستنجيرا . هذا في الوقت الذي لقي فيه من ظلم الفرنجة وغدرهم الكثير . ومع ذلك لم يفكر في أن يستخدم أسلوبهم .

وهو الى ذلك كله اديب مرهف الحس . يحب الشعر ويكره الترف وينفر منه ، حرص على تطهير العقيدة من الاوهام والبدع وقد اتبع له أن يصل الى كل ما يريد .

وكان يجلس للعدل بين الناس يومى الاثنين والخميس من كل اسبوع فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء .

ولم يرد قاصدا ولا طالب حاجة وما ترك مظلوما دون انصافه . وقيل أنه كان يعطى فوق ما يأمل الطالب ويعطى الكثير ويبسط وجهه للعطاء يبسطه لمن لم يعطه شيئا .

ولم يخلف فى خزائنه من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا .

وقد وقف صلاح الدين على البحر ومعه القاضي الفاضل وابن شداد . وقال : انه متى يسر الله فتح بقية الساحل قسمت البلاد واوصيت وودعت وركبت البحر الى جزائره وتعقبت الفرنج فيها .

ولعل مما يؤخذ على صلاح الدين هو فرط سماحته حتى أنه اطلق سراح جاي دى لوزينان ملك بيت المقدس بعد أن وعده أن يغادر الشام ثم حنث بعهده للملك ومضى الى صور حيث طلبه كونراد صاحب حاميتها أن يتولى معه زمام أمر اراده حيث اتجه الى طرابلس وحشد فيها الحشود وذهب الى عكا وكانت فى يد العرب فضرب حولها الحصار عامين يعاونه فيليب ورتشارد ملكا فرنسا وانجلترا . وقد قتل فى هذا الحصار ستون ألفا من المسلمين ، ثم جرت يوم فتحها مذبحة رهيبة ذهب فيها ألفا وسبعمائة مسلم .

وقد أدى سقوط عكا عام ١٢٦١ فى أيدي الصليبيين الى نتيجة مؤلة رهيبة هى امتداد الحروب الصليبية مائة عام أخرى .

يرحم الله أبا ذر • يمشى وحده • ويموت وحده • ويبعث وحده •

أبو زر الففاري

(جندب بن جنادة)

دخل على النبي وأسلم مكانه • فقال له النبي : ارجع الى قومك
فاخبرهم حتى يأتيك أمرى • فقال : أبو ذر : والذي نفسى بيده لاصرخن
بها بين ظهرانيهم • فخرج حتى اتى المسجد فنادى بأعلى صوته : « اشهد
أن لا اله الا الله » فقام القوم اليه فضربوه حتى اضجعوه •

وقد تلقى دروس الزهد عن رسول الله ، فكان لا يفترق عنه لحظة في
سفر أو حضر ، يستمع اليه ويسأله ويحفظ عنه • وقد انقطع الى عبادة
الله معرضا عن زخارف الدنيا • فاذا جن الليل أوى الى المسجد فنام مع
أهل الصفة •

وأحبه الرسول لزهده وتقشفه • وقضى رسول الله • ومضى أبو ذر
يبشر بدعوته في احتقار الدنيا والزهد فيها ورعاية الفقراء وانفاق الاموال
في سبيل الله •

ويقول : « ان الدنيا دار من لا دار له • ومال من لا مال له • ولها
يسعى من لا يقين له » فاذا مات له ولد من ولده قال « انما يولدون للموت
ويعمرون للخراب • ويحرصون على ما يغنى ، ويتركون ما يبقى ، الا
حبذا المكروهان : الموت والفقر »

ولاه النبي مرتين : حين غزا نجدا في السنة الرابعة للهجرة
والثانية في السنة السادسة للهجرة حين غزا بتي المصطلق •

وفي غزوة العسرة : أخذ متاعه فحمله على ظهره وخرج يتبع رسول
الله ماشيا ونزل الرسول في بعض منازلهم فنظر أحد المسلمين فقال :
يا رسول الله • ان هذا الرجل يمشى على الطريق وحده • فقال الرسول :
كن أبا ذر فلما تأمله القوم قالوا يا رسول الله هو والله أبو ذر • فقال
الرسول : رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده •

وكان من أهل الصفة من الفقراء ، وألحقه عمر بمن شهد بدرا في
توزيع العطاء على الرغم من أنه لم يشترك فيها •

هجر أبو ذر المدينة الى الشام بعد موت عمر وأقام هناك • ورأى الدنيا

وهي تفتح للمسلمين فيبنون القصور • ويكتزون الاموال • ويلبسون الحرير ويأكلون المرقق فجاشت نفسه بمعاني الورع • وآمن بأنه لا بد أن يواجه الجموع ويخاصم المترفين ويثبت فيهم كلمة رسول الله •

وكان يكتفى بشربة ماء أولين في ليلته • وفي كل جمعة قفيز من قمح • وكان ينفق ما يصل اليه من المال القليل • ويقول : ان خليل عهد الى ايما ذهب أو فضة او كى عليه فهو جمر علي صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله •

واجتمع الفقراء الى أبي ذر يستمعون اليه وهو يحدث عن الزهد والتشفس ، ويبدو في قامته الطويلة التحيلة ، ولونه الأسمر ، وعليه جلبابه الرقيق ، انه صورة ممثلة في الزهد •

ومضى أبو ذر يندد بالصحابة الذين أخذوا يجمعون الذهب والفضة ويبنون القصور • فقد كان عمر يحجزهم في المدينة فلما قضى ؛ وولى عثمان خرجوا الى الامصار •

وكان أبو ذر قد عاد الى المدينة بعد موت عمر وولاية عثمان • فرآها وقد تحولت الخلافة الى صورة الملك ، وبدت مظاهر الترف ، فبنى الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف الضياع والقصور • وكان لسعد بن أبي وقاص دار بالعقيق • ووهب عثمان أهله ومن حوله المال الكثير • اعطى مروان والحرث بن العاص ، وزيد بن ثابت • ولم يسكت أبو ذر فقد كان لا يخشى أحدا • ومضى يدعو الناس الى الزهد ويهاجم عثمان وبتلو الآية الخالدة التي جعلها مرآة دعوته : « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » •

وكره عثمان دعوة ابي ذر ، ودعاه ليصرفه عما يقول : واتهمه بأنه يحرض الناس عليه • وكان أبو ذر قاسيا ، لا يعرف الهوادة فيما يؤمن به ، واجه عثمان بعنف « فوالله لان أرضي الله بسخطك أحب الى وخير لي من أن اسخط الله برضاك » ولم يجد عثمان بدا من أن يلحقه بالشام •

وفي الشام اصطدم أبو ذر بمعاوية مرة ومرة • كان معاوية يختزن الفى • ويقول : انه مال الله • وكان أبو ذر يناهضه الرأي • ويدعوه الى أن يوزع المال على أهله لانه مال المسلمين • وبنى معاوية قصر الحضراء • وانفق عليه مئات الآلاف • وكره ذلك أبو ذر واتهمه بالاسراف وتوهجت دعوة أبي ذر فمضى يحدث الناس في المسجد ويحمل على معاوية وعثمان • وصاح صيحته ضد الاغنياء وكانزى المال • فاجتمع له الفقراء واحبوه •

ووشى به رجال معاوية وقالوا : ان أبا ذر يفتن الناس ويفسد عليك الشام • ولم يقف أبو ذر عند الدعوة بل قصد الى معاوية مرة ومرات يناهضه الرأي ويطلبه بأن يصرف أموال الفى التي هي من حق المسلمين اليهم ولا يختزنها • ويقول له ان الرسول وابا بكر وعمر ، كانوا يوزعونها واتهمه بأنه انما يحتجزها ليصرفها الى خلمه وحراسه وابته • بينما لا يحل له الا ما يكفيه لملبسه وطعامه كرجل من أوسط الناس •

وكان معاوية يهدده بأنه يدعو الناس الى الفتنة وكان أبو ذر يرفض أن يصمت ويقول : لا أرجع حتى يبذل الاغنياء فضلة أموالهم .

ورفض أبو ذر أن يدفع الاغنياء الزكاة . وقال ان البر هو انفاق المال كله لا يبقى منه شيء .

وكان قلوبته في دعوته الرسول نفسه الذي لم يترك درهما ولا دينارا . وحديثه « الاكثرون هم الاقلون يوم القيامة » .

وحمل حملة شعواء على اكساز المال ، وبناء القصور والتماس اللوان الطعام وقد خرج رسول الله من دنياه ولم يشبع من خبز الشعير .

وحاول معاوية أن يتخذ الطريق الى قلب أبي ذر على أسلوبه فأرسل اليه ألف دينار ذات مساء . فلم يصبح الصباح حتى اذا كان أبو ذر قد وزعها على المعوزين . فلما صلى الصبح ، جاءه رسول معاوية يقول له : « انقذ جسدك من عذاب معاوية . انه قد أرسلني بهذه الدنانير الى غرك فأخطأت حين جئت بها اليك . فقال له أبو ذر ، « يا بني والله ما أصبح عندنا من دنائرك شيء . ولكن اخرنا ثلاثة أيام حتى نجتمعها .

وقد أكد هذا لمعاوية ان الرجل صادق في دعوته . وأنه لم يدخر المال في بيته ليلة واحدة ولم يشن ذلك أبا ذر فتبلا عن دعوته فمضى يدعو الناس ويجتمع بهم وينهاهم عن كنز المال . ولا يكف عن الحملة على الاغنياء .

ووقف معاوية على المنبر يقول : « انما المال مالنا والفيء فيثنا » فوقف له رجل من أقصى المسجد وقال له : ان المال مال المسلمين لا مالك يا معاوية . وعرف معاوية أن دعوة أبي ذر قد تأصلت في نفوس الناس وانها بدأت ثمارها .

وجاء ابا ذر من يهدده باهدار دمه . ولكن انى لهذا أو غيره أن يرد الرجل الزاهد الذي لا يهاب الموت ولا يخشاه .

وأصر أبو ذر على أنه لا يكف حتى يوزع المال على جميع المسلمين . وأعلن أن اغصاب معاوية خير من اغصاب الله .

وكان أبو ذر في خلال هذه الفترة من الكفاح قد لقي مزيدا من الاعنات ، فقد انقطع عنه المال . وعاش حياة مهددة . واضطهده أصحاب معاوية . ولكن ذلك كله لم يردعه عن دعوته ولم يكفه عن صيخته .

وماتت ابنته بعد أن مرضت طويلا ، دون أن يعنى بها . فقد كان ماضيا في طريق دعوته ولا يعوقه شيء مؤمنا بأن الاموال لله والاموال فتنة .

وضاق معاوية بأبي ذر فكتب في شأنه الى عثمان يقول :

ان ابا ذر يجمع حوله الجموع وقد ضيق على واعضل بي . ولا آمن

أن يفسدهم عليك فان كان لك فى القوم حاجة فاحمله • وحمل على قتب الى المدينة حتى كاد أن يتلف •

وفى المدينة عاد الى دعوته والى صراعه مع عثمان •

ومضى يهاجم أسلوبه فى الحكم ويدعو الى انفاق المال ويطالبه بأن يتبع طريق صاحبيه • وحظر على الناس أن يجتمعوا به ولكن الناس كانوا يستمعون اليه مؤمنين • ومضى هو يفتيهم ويهاجم الاغنياء فى عنف ولا يخشى شيئا •

وكره عثمان بقاء أبى ذر فى المدينة • واختار أبو ذر الإقامة فى « الرينة » فخرج اليها حيث عكف على العبادة والصلاة • وبنى مسجدا صغيرا يصلى فيه • ولم يلبث موسم الحج أن بدأ ، وبدأ توافد الناس على أبى ذر وهم فى طريقهم الى مكة ليستمعوا اليه وهو لا يتحدث عن عثمان ولكنه يتحدث عن الزهد والايمان وانفاق المال فى سبيل الله •

وامضى أيامه فى المنطقة الجرداء القفر مع زوجته وبعض غلمانه • وقد أعطاه عثمان بعض الابل ، وأجرى عليه العطاء •

وكانت قد تقلعت به السن ، وفقد أولاده واحدا بعد واحد •

وكانت الدنيا هينة عليه منذ اليوم الاول فلم يحفل بها • وزادته الوحدة انصقال نفس واشراق قلب • ومضى يذكر أيامه فى صحبة رسول الله ، وتلك الوصايا التى أوصاه بها •

وذكر يوم أن قال له الرسول : انه سيتمحن وسيلقى من بعده الاذى وكيف أنه لم يرتجف • وانما سأل عما اذا كان ذلك فى الله • فلما أمن الرسول على قوله • قال • مرحبا بأمر الله •

وفى هذه الفلاة الموحشة جاء الموت لابی ذر • وليس من حوله الا زوجته وليس عنده ثوب يكفن فيه • ووقفت زوجته تحديق فى الفلاة لتشير الى أى من تراه مارا لتدعوه •

فلما أقبلت قافلة من الناس دعتهم اليها • فلما رأهم ذكر قول الرسول « ليموتن رجل منكم بفلاة من الارض تشهده عصابة من المؤمنين » •

كان ذلك عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق فلم يرعهم الا الجنائز على قارعة الطريق • وكان ذلك عام ٣١ هـ •

قال عليه السلام : ما اقلت الغبراء ولا اظلت الحضراء أصدق لهجة من أبى ذر •

ويروى الطبرانى : أن رسول الله كان يبتدىء أبا ذر اذا حضر • ويتفقده اذا غاب •

لقد عاش أبو ذر يحمل الدعوة الى الزهد • يقول كلمة الحق • وقد حملت دعوته الاجيال • •

الحسن البصرى

دخل الامام على جامع البصرة فأخرج القصاص وهو يقول :

القصص بدعة •• حتى انتهى الى حلقة شاب يتكلم على جماعة فاستمع اليه فاعجبه كلامه فقال : يا فتى ، أسألك عن شيئين • ان خرجت منهما تركتك تتكلم على الناس والا اخرجتك كما أخرجت اصحابك •
فقال : سل يا أمير المؤمنين • فقال اخبرنى : ما صلاح « الدين » وما فسادة •

قال : صلاحه الورع وفساده الطمع • قال صدقت فتكلم فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس •

ذلك هو الحسن البصرى داعية الورع والزهد والتقوى • أول من وضع أسس الزهد ورسم طرق محاسبة النفس وأعلى من شأن فضائل الخوف والرجاء •

يقول : ان الخوف والرجاء دعامتان يستند اليهما المؤمن على أن يكون الخوف عنده أقوى من الرجاء • لان الرجاء عندما يقلب الخوف يفضى الى فساد القلب •

ومضى الحسن البصرى يدعو الى تخليص المجتمع من الفساد الذى دب فيه حينما بدا الرعيل الأول من الصحابة يجمعون الأموال ويبنون القصور ويتخذون الفراش الوثير وأواني الذهب والفضة والحجاب والشرطة ويقلدون المظاهر الكسروية والابهة الفارسية •

رأى الحسن البصرى ان عوامل الفساد هذه التى سببتها الاموال التى جاءت بعد الفتح ، لادافع لها الا تطعيم المجتمع بمبادئ الزهد •

فبدأ يسخر من النفع المادى • ويحارب المآرب الدنيوية • ويجمع من حوله المريدين صارفا اياهم عن الانحراف والجشع والتطلع الى الاترياء • ومضى يقول :

« انكم لاتنالون ماتحبون الابتراك ماتشتهون • ولاتدركون ماتؤملون الا بالصبر على ما تكرهون » •

وحتى يثبت هذه المعانى فى النفوس مضى يصور الموت بصورة مرعبة تذهل النفوس عن الواقع الذى يعيشون فيه ، واقع الفقر والظلم •

وقد صور ذلك فى قوله : « ان أخلص الناس ايمانا يوم القيامة أشدهم محاسبة لنفسه ، وأشد الناس فرحا يوم القيامة أشدهم حزنا

فى الدنيا ، وأن أكثر الناس ضحكوا يوم القيامة أكثرهم بكاء فى الدنيا » .

نصب « الحسن البصرى » نفسه قاصدا بالمسجد مخالفا مذهب القصاص من تهويل واغراق ، ومضى يتكلم عن الموت . وعبوب النفس والزهادة فى المال والشيطان الذى يجرى فى الانسان مجرى الدم .

وأخذ من حديث رسول الله هذا الجانب الذى يحمل الوعيد ، ويرسم صورة الخوف الشديد ، والتحرز من الصفائر ، والرهبة من عذاب النار ، واستصغار الدنيا الفانية ، وقال ان أساس الدين التقوى والحزن والحوف .

وكانت حلقة من رسم جديد ، فى الاسلام . تدعو الى الانقطاع لله . واوصى المنقطعين أن ينتهجوا ثلاثة مسالك : الامل والاجل والسحر .

بعد الحسن البصرى المدرسة الفلسفية لمذهب « أبى ذر » فقد ولد بعد الهجرة بعشرين عاما ، وتفتحت نفسه للحياة فى عهد عثمان . وكان مقتل عثمان نفسه هو عقدة حياته وروح فلسفته .

فقد رأى الثورة على عثمان . وشاهد أبى ذر . واستمع اليه ورأى حماسه وعلق بنفسه اثر من معانيه . وزاد هذا المعنى أنه من الموالي .

وقد بدأت للموالي قضية منذ ذلك التاريخ ، بدأت مع الأحداث ، حينما استطالت النزعة العربية واستعلت على غيرها . فلما خرج للغزوات رأى هؤلاء الموالي وهم يذهبون وقودا للحرب . بينما يظفر العرب بالفنائم . وقد أداه ذلك أبى ان ينصرف من الغزو الى الزهد . ومن الصراع على مطامع الحياة الى دعوة الناس الى العبادة . والدعوة الى كراهية الدنيا والانصراف عنها .

وكانت الصورة المثالية لعهد عمر ، هى التى رسمت له طريقه . والتقى بفقهاء أعلام فى المدينة منهم : عياض بن حماد . ومقل بن يسار المزنى . وسحرة بن جندب . وأبو عثمان الهنذى .

وفى خلال الغزوات تعرف بقطرى بن الفجاءة . والمهلب بن أبى صفرة وغادر الحسن المدينة الى البصرة أيام صفين . وتردد على حلقات مسجدها . واستمع الى العباس يفسر القرآن . وتعلم من حطان الرقاشى القراءات .

والتقى فى البصرة بعمر بن أبى الحصين . وعبد الرحمن بن سمره . واستمع من هؤلاء جميعا أحاديث رسول الله وقصص ورعه . فكونت فى مجموعها العوامل التى تتفق مع طبيعته فى الاتجاه الى الزهد . اذ لا شك ان الحسن كان قد تأثر بطبيعة هذا الاتجاه ، غير ان هذه الصور والرؤى قد اعطته مادة فنه ودعوته وانشأت ذلك المذهب الجديد الذى انفرد به قصاصو البصرة ورضى عنه أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

وأتيح للحسن أن يذهب الى أقصى المشرق مع الغزوات فحضر حصار كابل وفتحها . وعمل مع الربيع بن زياد والى خراسان .

وكان الحسن يؤمن بمبدأ التقية . ولذلك وقف من الدعوات المختلفة ، والصراع المستمر موقف المتفرج .
 وعاش ممتنعاً عن أكل اللحم والسمن والدخول على الأمراء . . ثم انقطع أخيراً عن مجلسه في المسجد الجامع .
 وعندما سمح سليمان بن عبد الملك للناس في توزيع الأراضي الموات كي يستغلوها رأى ابنه الناس وقد أقبلوا على أخذ الاقطاعات فذهب الى أبيه يقول : لو أخذنا كما يأخذ الناس .
 فقال الحسن : اسكت مايسرنى لو ان لى ما بين الجسرين بزنبيل تراب .
 ولم يمنعه هذا من أن ينصح للدعاة وطلاب الملك . فقد كتب لابن الزبير يقول : ان لأهل الخير علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم . منها الصبر على البلاء والرضى بالقضاء . انما الامام سوق فما نفق فيها حمل اليها . فانظر أى سوق سوقك .
 واتسعت شهرة الحسن البصرى وكثر أتباعه في أواخر أيام معاوية واستجابت البصرة لدعوته وقد كان الحسن جريئاً في الحق . نقد الولاة وجهر بمخالفته لاستخلاف يزيد بن معاوية ، ومعارضة الخلافة الأموية الوراثية . وقد وضعه هذا موضع مراقبة عملاء الحجاج حتى اضطر الى الاختفاء والتوارى .
 ولكنه لم يمض في سبيل مقاومة الحكم . واكتفى بأن يدعو الناس الى الزهد واستصغار الدنيا .
 جمع ما بين العلم والورع . وكان يقال له صاحب العمامة السوداء ، قال عنه نقاده : عليكم بهذا الشيخ . فوالله ما رأينا أحداً ممن صحب رسول الله أشبه بأصحابه منه ويقال انه ما ضحك أربعين سنة .
 يأكل خبز الشعير في خاصته ، ويطعم أهله الجشكار . فإذا جنه الليل لبس المسوح . وغسل اليد الى العنق . وبات باكياً حتى يصبح .
 ولم يخالف قوله فعله . يبذل المال في سخاء . ويرفض زواج ابنته من رجل غنى . بيته من الخشب . خلو من فراش أو بساط أو حصير . وسريه منسوج من السعف .
 وكان طويل القامة ، عريض العظام ، جميل الوجه وسيما عيناه زرقاوان وصوته جهورى .
 ولما اشتد به الوجع طلب الى الخادم أن يسجر التنور ، وكانت لديه صحف وكتب فأمر بها فاحرقت غير صحيفة واحدة .
 ورسم « الحسن البصرى » بحياته صورة ممتازة للشخصية الزاهدة التي لا يخالف قولها فعلها . آمن بدعوته وفنى فيها . وعاش لها تسعين عاماً الا عاما واحداً . كان عمر بن الخطاب مثله الأعلى . وحذيفة بن اليمان أستاذه . التقي بسبعين بدرية . ورأى ثلثمائة صحابي . قيل وكان كلامه يشبه كلام الرسول .

ان معى ربه سيهدين •

منذر بن سعيد

انفق الناصر ثلثمائة ألف دينار كل عام على بناء الزهراء • وظل
على ذلك خمسة وعشرين عاما • وجلب لها زخارف الدنيا وبدائعها • ألف
سارية من أفريقيا • وحوضا منقوشا بالذهب غريب الشكل • وجعل على
الحوض اثني عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الفالى •
ويخرج الماء من أفواهها • وبنى بركة واسعة عليها أسد عظيم الصورة • •
شديد الروعة مطلي بالذهب • وعيناه جوهرتان لهما لمعان شديد يجوز
هذا الماء الى عجز الاسد ، فيدفعه فى البركة من فمه فيبهر الناظر •

وغضب منذر لذلك أشد الغضب • ومضى ينصح لعبد الرحمن ،
ويتناوله بالنقد جاهرا غير مبال • فأراد الناصر أن يرضى الناس • فبنى
مسجد الزهراء وحشد له ألف عامل • وفرشه بالرخام المرمى وجعل فى
وسطه فوارة يجرى فيها الماء •

وعندما وقف منذر على المنبر بعد ثلاثة أسابيع انقطعت فيها الصلاة
الجامعة قرع الناصر ، وقال انه انصرف الى الزخرفة والبناء عن غزو
الاعداء ، ومغالبة الفرنجة • وبدأ بالآية الكريمة : « اتبنون بكل ريع آية
تمبثون • وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون • واذا بطشتم بطشتم جبارين
فاتقوا الله وأطيعون • • »

وظل منذر يردد معانى الايصال فى الترف وحب البناء والاقامة •
والاعراض عن الجهاد حتى دمعت عيناه الناصر • وان كان قد عتب على منذر
تقريعه • ولكن « الناصر » كان يقدر الامام قدره ، ويرى له مكانته
وعدله ، فقد ذهب المنافقون يغرونه بعزل منذر فرفض • وقال : « امثل
منذر فى فضله وورعه وعلمه يعزل فى ارضاء نفس ناكبة عن الرشده ؟
انى لاستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شقيعا مثل
منذر فى ورعه وصدقه • »

والتف الناس حول منذر الذى عاد الى بيته فى نفس الطريق •
وأخذوا يخوفونه غضب الخليفة • فقال لهم فى بساطة : ان رضا الناس
لا يوازى غضب الله • وأن سطوة الله أعظم من سطوة أمير المؤمنين •

وقيل له لو التمسست رسولا للخليفة ليزيل ما فى نفسه ، فضحك
ابن سعيد وقال : ان معى ربه سيهدين •

وذهب القاضي الى بيته حيث لا يخرج منه الا ليؤدي الصلاة .
واستدعاه الناصر لمقابلته : فلبس رث الثياب وأردأها . ودخل عليه
مجلس الذهب حيث دبح بأصناف الديباج وفاخر الرياش .

وجلس ابن سعيد في آخر المجلس ، فأوماً اليه الناصر أن يقترب
فقال : يا أمير المؤمنين انما يقعد الرجل حيث ينتهي به مجلس ولا يتخطى
الرقاب .

وكان منذر مطرقا وهو يتحدث . فقال له الخليفة : ما تقول في
هذا القصر العظيم ؟ ورفع رأسه لأول مرة . وقلب النظر فيما حوله ، فنى
الصرح الممرد من قوارير الذهب والفضة . وأجاب :

ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا ،
رمهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا انه كان لآياتنا غنيدا .
سأرهقه صعودا ، .

وبلغ الأمر من ذلك أن خاف ابن طاووس . وكان يجلس الى جواره
أن يأخذه غضب السيف . فقال : فضمت ثيابى خوف أن ينالنى دمه .

ورجع القاضي الى بيته . وجاء من أسر اليه بأن الناصر أمر بنقض
سقف القبة واستبدال قوارير الذهب والفضة بقوارير الآجر وأمر بهدم
التمائيل فى مجلس الذهب .

هذه هي الصورة التى ترسمها كتب التاريخ لمنذر بن سعيد قاضى
الاندلس الشخصية البارعة الجريئة التى عرفت ببلاغة الخطابة وعدالة
الحكم وقوة الحجة . وعمق الفهم . والفقيه الذى طوف بلاد المشرق حيث
تلقى ايعام والفقه ونبغ فى فهم الأدب والتاريخ وتذوق الشعر والفنون
المختلفة . والمجاهد الذى هاجم الصليبية فى الاندلس كله .

وقد كان منذر مفطوما عن الشهوات عزوفا عن الترف والاهواء .
قد جعل الله عقله أكبر من عاطفته . فبهر الناس بخلقه ورجولته ونزاهته .
حتى لقد ألزم «الناصر» الحق مرات عدة .

لقد كان منذر مثالا للأئمة الاول الذين عرفتهم عصور الاسلام فى
قوته وازدهاره مثالا فى النصيح والتسديد . وقول الحق . وخشية الله
وحده .

وكان الى ذلك حاضر البديهة جيد النادرة لبقا . حلو العبارة . فيه
من روح النبوة مسحة . ومن أسلوب الرسول شبه .

وقد عرف بالاجتهاد ولم يتقن فى الافتاء غير مذهب مالك . وأفسح
للمناس فى الرأى وبسط وجوه الشريعة .

ولى القضاء فى عهد عبد الرحمن الناصر واستمر الى أن مات فلما
ولى ابنه الحكم استعفى وقد أثنى عليه المؤرخون وخاصة الفتح بن خاقان .
لم يحفظ عليه مدة ولايته قضية جور . وله كتب فى القرآن والسنة والرد
على أهل الاهواء .

توفى بقرطبة عام ٩٤٦ م .

« اردت عمرا واراد الله خالجه »

عمرو بن العاص

قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص :

لقد عجبت في ذهنك وعقلك . كيف لم تكن من المهاجرين الاولين .
فقال عمرو :

وما أعجبك يا عمر في رجل قلبه بيد غيره . لا يستطيع التخلص منه
الا الى ما أراد الذي هو بيده .

قال عمر : صدقت .

اسلم عمرو متأخرا . وحين خرج من مكة يريد المدينة وجد في
طريقه خالد بن الوليد وعثمان بن أبي طلحة ، ذاهبين لنفس القصد .
فدخل ثلاثهم على الرسول . واقترب منه عمرو وقال : يا رسول الله اني
أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي . فقال النبي : يا عمرو بايع ، فان
الاسلام يجب ما قبله ، والهجرة تجب ما قبلها . ثم قال : اسلم الناس
وآمن عمرو بن العاص .

وكان عمرو سفير قريش الى النجاشي مع عبد الله بن أبي ربيعة
يطلبان اليه أن يسلم المسلمين المهاجرين . وقد حملا معهما الهدايا
والعطايا . ورفض النجاشي . كما اشترك في عدد من المعارك ضد المسلمين
وهو جندي محارب عاش على عصبية البيئة متمثلة في أبيه العاص بن
وائل حتى ذهب هؤلاء القوم الأقرام العتاة . . هنالك كشفت امامه وامام
زملائه حقائق الأمور . وذهبت الأوهام من النفوس .

وقد قلده النبي « اللواء » في غزوة ذات السلاسل وجعله على
ثلثمائة من سراة المهاجرين والانصار من بينهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة .
وقد قام بعمليات حربية ليلية امهانا في التستر وكان يكمن بالثوار ويسير
بالليل . وقد منع قومه من الاصطلاء بالنار حتى لا يكشف أمرهم .

وهو أول من استنفر المرأة مع زوجها لتدفعه في قوة الى الحرب ،

واشترك في حروب الردة في اخضاع قبيلة قضاة . كما عقد له عمر
اللواء على الجيش الذي سار لفتح فلسطين فتوالت انتصاراته على الروم

فى جميع المواقع التى خاض غمارها • وأظهر بسالة فائقة يوم اليرموك •
ويوم اجنادين •

وعندما بعثه عمر فى الغزو قال : انى سهم من سهوم الاسلام وانت
بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاهها وأفضلها فارم بها
شيئا ان جاءك من ناحية من النواحي •

وعمر هو الذى طلب من الخليفة عمر فتح مصر • ووصفها له بأنها
أكثر الأرض أموالا • وكان نه بها خبيرة سابقة عندما قدم اليها فى
الجاهلية • ولقد ظل يهون على الخليفة الأمر حتى أذن له • فلما أوشك
أن يمضى أنذره بأنه قد يرسل له خطابا يطلب منه فيه الرجوع عن فتح
مصر • فاذا جاءه الخطاب قبل أن يبلغ حدودها فليرجع • وكان قد أرسله
فى أربعة آلاف من أهل اليمن •

فلما كان عمرو فى بعض الطريق قرب رفح وقد أوشك أن يدخل
مصر وافاه رسوله بخطاب منه فأرجأ تسلمه حتى دخل الفرما وكان عثمان
قد أغرى عمر بإعادة عمرو قائلا ان به جرأة وحبا للامارة • فلما تسلمه
فرح لانه كان قد جاوز الشرط الذى اشترطه عليه وأوغل فى البلاد •

وقد بلغ العريش عام ١٨ هـ ، فلما بلغ الفرما حاصرها أكثر من
شهر لما كانت عليه من قوة ومنعة • ثم دانت له فبارحها الى القنطرة
فالصالحية حتى دخل بلبيس ولما وجد ابنة « المقوقس » فى بلبيس ردها
الى والدها معززة فأعجب هذا التصرف أهل مصر •

كانوا أربعة آلاف أولئك الذين ساروا بأمرته يقطعون الصحراء • •
ويدخلون مصر ويحاصرون حصن بابليون وقت فيضان النيل • فلما طالب
الخليفة بالمدد أمده بأربعة آلاف على رأسهم الزبير بن العوام والمقداد بن
الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد •

وقد فتح حصن بابليون الذى ظل يقاوم سبعة أشهر ، ثم سار الى
الاسكندرية • ثم فتح برقة لتأمين حدود مصر الغربية ثم امتد نفوذه الى
بلاد النوبة • ووقع اختياره على مدينة الفسطاط • وأعاد حفر الخليج الذى
كان يصل النيل بالبحر الاحمر •

وعامل القبط بالتسامح ، وحفظ لهم جميل مدهم له بالمساعدة
وتيسير مهمة الفتح ، وبدا يبرز المجتمع فى صورة تلاق واندماج كاملين

وعندما ولى عثمان الخلافة عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر
وولاه عبد الله بن سعد بن أبى سرح •

ثم انضم عمرو الى معاوية • وهو صاحب خدعة رفع المصاحف على
أسنة الرماح. ونجحت حيلته. وهو أيضا الذى غرر بأبى موسى الأشعرى

ودفعه الى الاقرار بأن يعزل كل منهما صاحبه وجعل الأمر شـووي
للمسلمين ، فلما وافق أبو موسى أغراه بأن يتحدث هو أولا فقام الأشعري
فعزل عليا ، وقام عمرو من بعده فثبت معاوية . وقد أعاده معاوية الى
مصر مكافأة على صنيعه .

وعندما أراد الخوارج قتل الثلاثة : علي ومعاوية وعمرو وحددوا
لذلك موعدا تصادف أن أصيب في ذلك الصباح بوعكة مفاجئة ، فنذب
(خارجة بن حذافة) عنه لصلاة الفجر فظن الخوارج أنه هو فأصابوه .
وذهبت مثلا « أردت عمرا وأراد الله خارجة » .

ووصف رجل عمرا فقال « رأيت رجلا ربعة قصير القامة . وافر
الهامة . أذعج أبلج . عليه ثياب موشاة . كأن به العقيان . تأتلق عليه
حلة وعمامة وجبة » .

ومن قوله : « اياكم وخلالا أربعا : فانها تدعو الى النصب بعد الراحة
والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزة . اياكم وكثرة العيال .
واخفاض الحال . وتضييع المال . والقليل بعد القال ، في غير ذلك ولا
نوال . ثم لا بد من فراغ يزول اليه المرء في توديع جسمه » .

ومن اقواله اتى تمثل بلاغته في وصف مصر :

لقد تدلت الجوزاء . وزلت الشعري . وأقلعت السماء . وارتفع
الوباء . وقل الندى . وطاب المرعى . ووضعت الحوامل . ودوجت
الشمائل . وعلى الراعى بحسن رعيته .

وواربموا خيلكم واسمنوها . وصونوها . واكرموها . فانها جنتكم
من عدوكم وبها مفانكم وأنفالكم » .

وقد وصف عمرو بالدهاء السياسي . وكانت له موهبة عسكرية
واضحة ، وقطنة سياسية وضحت في كل تصرفاته . وقد مكثه ذلك من
الانتصار على جيش الروم الذي كان يبلغ عشرين ألفا بفضل الصبر
والقيادة المنظمة .

ومن دهاء عمرو وحذقه أنه إبقى رسول المقوقس لديه فترة من الزمن
حتى يرى قوة العرب وصلابتهم ، فلما طاب الرسول وفدا يتحدث اليهم
أرسل لهم عمرو عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان طويلا مهيبا .
وأمره أن يكون يتحدث القوم ، فلما دخلوا على المقوقس اهتز لمنظر عبادة
وهاب سواده فطلب تنحيته فأصرروا على أنه هو أميرهم ومحدثهم .

اعتزال الولاية للمرة الأولى عام ٢٧ هجرية عندما أشرك الخليفة
عثمان معه عبد الله بن سعد ، فلما بدأ الخلاف بين معاوية وعلي ، ووقف
الى جانب معاوية أعطاه مصر طعمة ، أى أن يكون له خراجها ، وذلك بعد
أن فتحها معاوية للمرة الثانية وضمها الى حكومة دمشق عام ٣٨ وكانت
قد تابعت حكومة الكوفة ولم يبق بها الا سنوات معدودة فقد توفى عام
هجريه .

لست بخير من أحدكم • ولكنى أثقلكم حملا •• ألا لا طاعة لمخلوق
في معصية « الخالق » •

عمر بن عبد العزيز

ما أبعد الفرق بين شبابه وشيخوخته ، أشبه بنى أمية هذا الذى
من ولد عمر فى وجهه علامة يملأ الارض عدلا •

كان يلبس الرقيق من الثياب • ويمشى المشية العمرية المعروفة •
قلما وصل مقام الخلافة كان يلبس الخشن من الثياب • ويأتدب بالملح
والزيت • ويقوم الى الصلاة فيطيل القيام • ويركع فيطيل الركوع •

كان فى شبابه أنيقا يرخى شـعره ويسبل ازاره ويتبختر فى
مشيـته • وكان مترفا غنيا • عاش فى مصر فى دار الامارة بين عظمة
الملك وجلال السلطان •

وكان يشتري مطرف انخبز بثمانمائة درهم • ويقول ما اخشنه •
وما كان يلبس ثوبا فيراه الناس فيه الا خيل اليه أنه قد بلى • وكان
يتطيب برائحة عرفت به فيها القرنفل والعنبر •

وعندما سافر من مصر الى المدينة كانت هناك عشرات من الجمال
تحمل ثيابه ، وكان يحذق الغناء ويحبه •

وفى سن الأربعين ولى عمر الخلافة بكتاب من سليمان بن عبد الملك
كثبه عند موته • وهنا تجيء نقطة التحول فى حياة عمر الذى كان معروفا
بالوقار والخلق • ولم يكن على تجمله صاحبا أو عابثا •

وفى لحظة واحدة تحول عمر من الترف الى الزهد ، فبعثر ملبسه
طعامه ومنزله • وبدا فى صورة من الورع ، قل أن عرفت فى التاريخ
الا للقلائل •

اشترى جبة من الصوف بثمانية دراهم • وتغير منه كل شيء الا
مشيته التى وكل بها تابعه • مزاحم • ويقول له : « ذكرنى اذا رأيتنى
امشى » فيذكره فيخطئها ثم لا يستطيع الا اياها فيرجع اليها •

زهد عمر فى مراسم الخلافة : رد المراكب المظهمة • ورفض
النسراو • ورفع فراش الخلفاء • وضمه الى بيت المسال • وعاد الى نعله
وحصيره • اتى له بالجوارى فحيرهن وزدهن الى أهلن • وحملهن الى
البلاد • بل ان طلب من زوجته فاطمة أن ترد ما معها من مال وعلى الى
بيت المال •

ورفض عمر في لومة الامة أن يقلل في الظهر قبل أن يرد المظالم
فرد مظالم سليمان بن عبد الملك كلها ، وأعاد الحقوق الى أربابها ، وتنازل
عما ورثه . وخرج عما كان تحت يده من قطائع وضياع . فحرق سجلاتها
وأعادها الى المسلمين .

وفرّج الناس ببيعة عمر وغضب بنو أمية . فقد قطع عنهم الاعطيات
الضخمة التي كانوا يحصلون عليها من الخلفاء .

وضرب المثل في قوة الشخصية عندما وقف أمام « البيت الأموي » ،
كله فلم يكن له خصم سواهم ، فقد ألقي اعطية ٢٠ ألف دينار ، كان أمر
بها سليمان لعتبة بن العاص . فلما جادله قال له : عشرون ألف دينار
تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها الى رجل . والله ، والله ما الى
ذلك من سبيل .

وشكت عمرته من قطع الاعانة التي كانت تحصل عليها فقال لها :
يا عمّة انهم كانوا يعطونك من مال المسلمين . وليس ذلك المال لي . ولكنني
أعطيتك مالي ان شئت . ورد مظالم بنو أمية كلها . ما من رجل جاء له
في مظلمة اغتصبت الا ردها اليه بيينة يسيرة . وقصة روح بن زبّاغ الذي
كان الوليد قد أقطعه حوانيت بحمص معروفة . فقد رفض روح أن
يسلمها ، فأرسل عمر من يطلب اليه تسليمها أو يأتيه برأسه .

ودخل اليه أهله يسألونه أن يجرى عليهم ما كان جاريا عليهم من
قبل من اعطيات . فقال لهم : والله ما هذا المال لي . ومالي الى ذلك من
سبيل .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان عمرا جمع بنو مروان وطلابهم
بشطر أموالهم وتقديم نصفها لبيت مال المسلمين . فلم يجب أحد منهم
وقال أحدهم : والله لا نخرج من أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا فننقر
أبناءنا ونكفر آبائنا حتى زایل رعو سنا أجسادنا . فهددهم عمر واقسم
لئن عاش ليردن الى كل ذي حق حقه .

وكانما كان موقف عمر هذا من أهله هو نهايته . فقد دفعهم الى أن
يقتلوه على هذه الصورة التي مات بها . حين دسوا له السم في طعامه .

يصف عمر نفسه فيقول : كانت لي نفس تواقّة . فكنت لا أنال
شيئا الا تاقت الى ما هو أعظم منه . فلما بلغت نفسي الخلافة تاقت الى
الآخرة .

بدل عمر حياة الناس . وأسعد الناس بعدالته . وتحول المجتمع
في عهده عن اللهو والترّف ، حتى كان الناس يسأل بعضهم بعضا عن
الحير والصلاة والضياع .

ورد في الاخبار أن الوليد كان صاحب بناء وعمران ، فكان الناس
يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضا عن البناء والضياع . وكان سليمان

صاحب طعام وزواج فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الطعام والزواج والطلاق .

وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الخير والصلاة والصيام .

وقد رد عمر المجاهدين عن الثغور . وأقنع الخوارج . وأبطل لعن على على المنابر ، وأقام الشعراء على بابه لا يأذن لهم بالدخول .

كان يقول لمن عنده : من صحبنا فليصحبنا بخير والا فلا يقربنا . يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها . ويعيننا على الخير بجهد . ويدلنا على الخير ما نهتدى إليه ، ولا يغتاب أحدا ولا يتعرض لما لا يعنيه .

وقد بعث واليه في مصر يقول ان الناس يدخلون في الاسلام ، وأن هذا يؤثر على الخراج . ويسأله عن أمر الجزية .

فقال عمر : ضع الجزية عن أسلم قبح الله رأيك ، فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا . ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه . وأنا وأنت حرائرنا نأكل من كسب أيدينا .

وكان كل مساء يستمع الى حوائج الناس ويستعمل الشمع ، فاذا حدثه أحد في شأن من شئونه الخاصة دعا بسراج من بيته .

قيل وفد عليه بريد من بعض الآفاق فأنتهى الى بابه ليلا . واستأذن عليه فأذن له . ودعا بشمعة غليظة فاوقدت . وجعل يسأله عن أهل البلد حتى اذا فرغ عمر من مساءلته قال له : يا أمير المؤمنين : كيف حالك في نفسك وبدنك وكيف عمالك . فنفخ عمر الشمعة فأطفأها وقال : يا غلام على بسراج . ثم قال له سل عما أحببت . يا عبد الله ان الشمعة التي رأيتني أطفأتها ، من مال الله ومال المسلمين فكانت تلك الشمعة توقد بين يدي فيما يصلحهم وهي لهم . فلما صرت لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين .

وكان طعامه ملحاً وزيتاً . وعندما ولى الخلافة كانت غلته أربعين ألف دينار ولم تتجاوز عند وفاته مائتي دينار . قال مالك بن دينار : الناس يقولون مالك بن دينار زاهد . انما الزاهد ابن عبد العزيز ، أته الدنيا فتركها .

وكان يصلي صلاة وصفها أنس خادم رسول الله بقوله : ما صليت خلف امام بعد رسول الله أشبه بصلاة رسول الله من امامكم هذا .

ومن قوله : لست بقاض ولكنني منفذ . ولست بمبتدع ولكنني متبع . لست بخير من أحدكم . ولكنني أثقلكم حملا ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقيل دخل على عبد الملك بن مروان يوما وكان معه بنوه . فقال له

عبد الملك وهو يومئذ الخليفة : كيف نفقتك ؟ قال عمر : الحسنة بين
السيئتين . قال عبد الملك فما هما . قال عمر : « والذين اذا أنفقوا لم
يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

* * *

آلت اليه الخلافة بكتاب من سليمان . فلما دفن سليمان نجى عنه
حامل الحربة وذهب الى المسجد فخلع بيعة الناس وقال لهم انهم قد بايعوا
دون مشورة . وأباح لهم أن يختاروا لانفسهم ، فصاح الناس « قد اخترناك
يا أمير المؤمنين ، وجمع اليه صحابته والعلماء . وقال لهم : من أراد أن
يصحبنى فليصحبنى بخمس . يدلنى من العدل الى ما لا أهدى اليه .
ويكون لى على الخير عونا . ويبلغنى حاجة من لا يستطيع ابلاغها .
ولا يقتاب عندى احدا . ويؤدى الأمانة التى حملها منى ومن الناس .
وعرف عمر بالبراعة واللباقة فى الحديث . وآية ذلك أنه جادل
الحوارج وهم من هم فى الجدل فأقنعهم فعاهدوه أن لا يخرجوا عليه .
وفى أول عهده خرج شوذب الخارجى فكتب اليه عمر يقول :

بلغنى انك خرجت غضبا لله ورسوله . ولست أولى بذلك متى فهلم
الى اناظرك وان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس . وان كان
فى يدك نظرنا .

فكتب الى عمر يقول : قد أنصفت . وقد بعثت اليك رجلين
يدارسانك ويناظرانك .

وأرسل الى عمر مولى لبنى شيبان حبشيا اسمه عاصم . ورجلا من
بنى يشكر وناقشهما عمر وسمع اليهما ، واستمعا له . وقال له عاصم :
اشهد أنك على حق .

وقد مكن عمر من الفوز عليهما أنه كان عالما تلقى الفقه باكرا على أنس
ابن مالك وجماعة من الصحابة . ومن ذلك قوله : لقد رأيتنى وأنا بالمدينة
غلما مع الغلمان ثم تآقت نفسى الى العلم بالعربية والسفر فأصبحت منه
حاجتى وما كنت أريد .

وقد ابطال عمر ما استحدث بعض خلفاء بنى أمية .

وعندما جاءتة الوفاة رفض أن يكتب لابنائه شيئا . وجعل ذلك فى
مقام ما فعل بالنسبة لقومه حتى أوقف ما كان يجرى عليهم من بيت المال .

ولم تطل أيام خلافته أكثر من عامين وخمسة اشهر ، ومات فى
رجب عام ١٠١ هـ .

لو كان بيني وبين الناس شعرة : ما انقطعت أبدا : اذا شدوها
ارخيتها واذا ارخوها شدتها .

معاوية بن أبي سفيان

قال ابن طباطبا يصف معاوية :

كان عاقلا في دنياه لبيبا . عالما حليما . مالكا قويا . جيد السياسة
حسن التدبير بأمور الدنيا ، عاقلا حكيما ، فصيحاً . بليغاً . يحلم في
موضع الحلم . ويشتد في موضع الشدة الا أن الحلم كان أغلب عليه . وكان
كريما باذلا للمال محبا للرياسة شغوفا بها .

كان يفضل على اشراف رعيته كثيرا . فلا يزال اشراف قريش يفدون
عليه بدمشق فيكرم مثنواهم . ويحسن قراهم . ويقضى حوائجهم . ولا
يزالون يحدونونه أغلظ الحديث ويجبهونه أقبح الجبه . وهو يداعبهم تارة
ويتغافل عنهم تارة أخرى ، ولا يعيدهم الا بالجوائز السنية والصلوات
الجميلة .

* * *

ويروى المسعودي أن معاوية كان اذا انفل من صلاة الصبح جلس
الى القاص حتى يفرغ من قصصه . ثم يدخل فيفتح مصحفه ويقرأ ثم يدخل
الى منزله فينظر في بعض أمره ثم يصلي أربع ركعات . وفي الضحى يخرج
الى مجلسه فيأذن لحاضته فيحدثهم ويحدثونه ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه
فيما يريدون من يومهم الى العشي . ثم يؤتى بالغداء الأصفر وهو فضلة
من عشائه من جدى بارد أو ما يشبهه . ثم يخرج كرسيه الى المسجد
فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسي ويتقدم اليه الناس :
الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له . فيقول ظلمت فيقول :
أعزوه . ويقول : عدى على . فيقول : ابعثوا معه . ويقول صنع بى . فيقول :
انظروا في أمره . حتى اذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير . فيقول :
انذونا للناس على قدر منازلهم . ولا يشغنى أحد عن رد السلام فيدخل
الناس فيقول لهم ارفعوا الينا حوائج من لا يصل الينا . ثم يتكلم الناس
فاذا قيل استشهد فلان . يقول : افرضوا لولده . واذا قيل غاب فلان عن
أهله . يقول : تعهدوهم واقضوا حوائجهم .

ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه . فيمد يده
فيأكل لقمتين أو ثلاثا . والكاتب يقرأ كتابه . ثم يرفع الغداء . وينصرف
الى منزله فلا يطعم فيه طامع حتى يخرج فيصلى العصر . ثم يجلس على

سريره ويؤذن للناس على منازلهم . ويؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقداد ماينادى بالمغرب فيخرج فيصلها ثم يصلى بعدها أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة خمسين آية ، يجهر بآية ويخف أخرى . ثم يدخل منزله حتى ينادى للعشاء الآخرة فيخرج فيصل . ثم يؤذن للخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء صدرا من لينتهم ، ويستمر الى ثلث الليل فى اخبار الحرب وأيامها وملوكها وسياساتها لرعيتهما . ثم تأتية الطرف الغربية من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ثم يدخل فينام ثلث الليل . ثم يقوم فيقعد . فيحضر الدفاتر التى فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد . فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون .

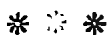


لايستطيع أحد أن ينكر أن «معاوية» علم من أعلام الاسلام حفر اسمه فى سجل التاريخ فقد أمضى أكثر من أربعين عاما يحكم الشام حاكما وخليفة ومهما قيل عن أسلوبه ومرونته فانه لون من ألوان البطولة الاسلامية فى تطورها بعد النبوة وانتقالها من مرحلة الخلافة الراشدة التى تتمثل فى عمر وعلى الى مرحلة الملك والسلطان والحلاف بين «شخصية على» و«شخصية معاوية» هو خلاف طبيعى . فليس فى تاريخ أى حقبة مهما تقاربت بطولات متماثلة . فان بين أبى بكر وعمر خلاف فى الأسلوب والطبيعة والشماثل بالرغم من أنهما عاشا فى عهد واحد ، والتقى على معين واحد هو محمد صلى الله عليه وسلم . اذن فلا بد أن يكون هناك خلاف فى أساليب الحكم بين على ومعاوية .

فقد كان على يعيش فى صورة أبى بكر وعمر وهى صورة أربعين عاما مضت منذ انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى . أما معاوية فكان يعيش فى الواقع . فى الزمن الذى تطور بعد أن اذن عثمان لكبار الضحابة سيحون فى الأرض ويكونون الثروات .

ولم يكن بين على ومعاوية هزائم وانتصارات ، وإنما هو ناموس الحياة الذى لا يتخلف فالناس هم الناس فى كل زمان ومكان طلاب منفعة وسلطان ، فاذا أراد لهم على أن يعقدوا مرة أخرى الى زمن عصرى كان ذلك عسيرا . وكان كل من حول على يطعمون فى السلطان والملك وعلى لايريد الا نماذج معينة من أهل العدل مما حول أصحابه الى خصوم . انتقلوا من معسكره الى معسكر معاوية فأعطاهم . أما معاوية فكان يقطع الألسنة بالعطاء ويرد الخصوم بالهبات . ومع ذلك فقد ظل شأن الناس معه على حد قول القائل : قلوبهم مع على وسوفهم مع معاوية .

ويصور معاوية عوامل انتصاره على على فى قوله : أعنت على وعلى ، بأربع خصال كان رجلا لايتكم سرا وكنت كنوما لسرى . وكان يسعى حتى يفاجاه الأمر مفاجأة . وكنت أبادر الى ذلك . وكان فى أخبث جند وأشدهم خلافا . وكنت أحب الى قريش منه .



ولعل أبرز صور معاوية فى فهمه العميق للأمور ، ومسايرته للزمن، ويقظته وتطوره وقدرته على الجرى مع الأحداث، ومواجهة الواقع مادوى عن

للقائه مع عمر بن الخطاب عندما قصد الى بيت المقدس لتسلمه من الرومان .
لما قدم عمر بن الخطاب تلقاه معاوية في موكب عظيم . فلما دنا منه
قال له : انت صاحب الموكب العظيم .
قال : نعم يا امير المؤمنين .

قال : مع ما يبلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك .
قال نحن بأرض جواسيس العدو بها كثير . فيجب أن نظهر من
عز السلطان مانرهم به . فان أمرتنى فعلت وان نهيتنى انتهيت .
قال عمر لمعاوية : ما سألتك عن شيء الا تركتنى فى مثل رواجب
الفرس ان كل ما قلت حقا ، فانه لراى اريب . وان لم يكن فهو خدعة
أديب .

قال : فمرنى يا امير المؤمنين . قال : لا أمرك ولا انهاك .

والحق أن معاوية أوتى شخصية بارعة غاية البراعة وصفها هو فى
قوله :

كانما بينى وبين الناس شعرة : اذا شدوها ارخيتها . واذا ارخوها
شددتها ولقد كان معاوية يستلهم ما يسمى بالعرفه النفسية ومدخل القلوب
يعرف مقاتل الناس والنفعة التى يحبونها . ويستعمل ذكاه على أوسع
نطاق فى كسب القلوب . وقد كان للمال - ولا يزال - سحر خطير فى
ذهاب الخصومات واحلال الود محل البغض . ولم تكن عاطفة القلوب
المجردة لتكفى الناس فى ذلك الزمن الذى تفشت فيه المطامع .

وقد استطاع معاوية بأسلوبه وحكمته ومرونته أن يوطد الملك لبنى
أمية أكثر من مائة عام . وكان يقسم السلطة بينه وبين حكامه . فيقول
لزياد والى العراق : لا ينبغي ان نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقالنا
مقام رجل واحد . ولكن تكون أنت للشدة والغلبة وأكون أنا للرافة
والرحمة فيستريح الناس بيننا .

وكان ينخدع أحيانا للناس حتى يرى كأنه مصدق لما يقولون . وذلك
كسبا لقلوبهم . وقد جاء رجل من الكوفة . فقال له : ان داره قد حرقها
واليه عبد الرحمن بن الحكم . وانها بمائة ألف درهم . وشهد له بذلك
شيخ آخر فأمر له بها . فلما خرجا أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم :

أى الشيخين عندكم أكذب ؟

والله انى لأعرف داره . وما هى الا خصائص قصب . ولكنهم يقولون
فنسمع ويخادعوننا فننخدع .

وقد استمال بدعائه الداهية الأخير : عمرو بن العاص - وكانت
الصلة بينهما على أساس المنفعة . وقد منحته هذه الكياسة والمرونة عشرين

عاما قضاها في الولاية قبل الخلافة في دمشق فاستتب له الأمر ، وتمكن من القلوب .

وهو أول من اتخذ الحرس والحجاب والقصور . وحول الخلافة الى ملك وجعل ولاية العهد مشروعة من غير انتخاب . وأخذ البيعة قسرا لابنه يزيد .

وصفه عمر بقوله : فتى من قريش يضحك في الغضب ولا ينال ماعنده الا على الرضى . ولا يأخذ مافوق رأسه الا من تحت قدميه .

وقد عرف عن معاوية : انه كان جميل الصورة . حلو الحديث . هادئ السمة أنيقا . لايفضب مهما حاول محدثه أغضابه . لا يضع سيفه حيث يكفيه سوطه ولا يضع سوطه حيث يكفيه لسانه . وقد اتخذ كل وسيلة الى توطيد ملكه وساطتانه . وكانت شربة العسل التي يقدمها قضاء على خصمه حتى عرف عنه قوله : « ان لله جنودا منها العسل » .

ومن قوله : عجبت لمن يطلب أمرا بالقلبة وهو يقدر عليه بالحجة .

وقد واصل معاوية بعوث الجهاد والفتوح فبعث عبد الله بن سوار الى بلاد السند فيما يلي خراسان . ووصل المهلب بن أبي صفرة الى لاهور .

وغزا الدولة الرومانية برا وبحرا . وبلغ أسطوله ألفا وستمائة سفينة فتح بها رودوس وبعض الجزر اليونانية . وأرسل الشواتي والصوائف لحصار القسطنطينية وكان على رأس واحدة منها وأرسل عقبة ابن نافع لفتح إفريقية .

وقد جدد شباب الدولة الإسلامية وأعانته حكمته وذكاءه وتجاوبه وقراءاته على أن يدير الملك ويرضى الناس ويحسن التصرف .

وقد توفي معاوية عن ثمان وسبعين سنة وأمضى تسعة عشر عاما خليفة وتوفي عام ٦٠ هـ .

« اياك والتبذير فان التوائب غير مأمونة • والحوادث غير مضمونة •
وهى من شيم الزمان » •

أبو جعفر المنصور

ما أحوجنى الى أن يكون على بابى أربعة نفر : لأ يكون على بابى اعف منهم • قيل له من هم ؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك الا بهم • كما أن السرير لا يصلح الا بأربع فوائم أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القسوى • والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية • فانى عن ظلمها غنى • والرابع ثم عض على أصبعه السبابة - ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه • آه • فقيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب يريد يكتب بخبر هؤلاء على الصخرة •

*. *

أبو جعفر المنصور : ثانى الخلفاء العباسيين • وألح الرجال الذين حملوا على أكتافهم الحركة التى أطلق عليها «الرضا من آل محمد» والتى كانت تهدف الى التخلص من حكم الامويين • والذين تحقق لهم فيما بعد أن يقيموا هذا السلطان الجديد • وان يشترك فيها بجهد ضخم بارز لا يمكن أن ينسى حين يذكر سلطان العباسيين فقد حكم اثنين وعشرين عاما • وطد خلالها الملك لاولاده واحفاده • وفصى على خصوم الدولة وبى المدن وأشأ القصور • وجمع المال • وقد عرف المنصور بالرجولة القوية القاسية التى لاتعرف اللهو • ولا الترف ، وكان أسمر اللون نحيفا خفيف العارضين • وقورا يلبس الحشن من الثياب ، حسن الخلق فى الخلوة • ومن أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح • فاذا لبس ثيابه وخرج الى المجلس العام تغير لونه ، واحمرت عيناه ، وتغيرت أوصافه • حتى لقد روى عنه أنه قال لبنيه : « اذا رأيتمونى قد لبست ثيابى وخرجت الى المجلس فلا يدنون أحد منى مخافة أن أصيبه بشئ » •

لقد كان بخيلا لايبسط يده ب درهم واحد فى غير موضع • وكان يحاسب رجاله على المال القليل والوفير • حتى سمي «أبو الدوايق» مؤمنا بأن من قل ماله قل رجاله وقوى عليه عدوه • وكان لايعطى الا اذا كان فى العطاء رجاء وقد مكنته طبيعته هذه الجادة الصارمة من بناء الدولة الجديدة وأعائه على ذلك الزمن الطويل الذى عاشه ، وأعطته صحته واستقامته هذا العمل الطويل فقد كان يكره المحرمات ، مفطوما عن الشهوات • ولم يعرف عنه ما عرف عن خلفاء بنى أمية ولا خلفاء بنى العباس ولا ما عرف عن أحفاده الهادى والرشيد والمأمون من نزوات ومطامع ورغبات فى الترف واللهو •

وكان يعمل وقته كله حتى أرهق نفسه وأرهق من حوله ، الى أن أغروا طبيبه أن يشير عليه بشرب التبيد دواء وعلاجاً . عسى أن يشغله الشراب عنهم . فما لبث المنصور بعد يومين أن أحس تثاقلاً عن الصلاة فلما أصبح دعا بما عنده من شراب فأمر بآرافته . ثم قال : لا ينبغي لمثلى أن يشرب شيئاً يشغله ، وهذه الصورة تبرز خلقاً من خلق المنصور هو قوة ارادته الضخمة التى دفعته الى أن يصرف نفسه عن الشيء ولا يدعه يؤثر فيه أو يفرض عليه .

..

كان شغوفاً بالبناء ، يرى بناء الدولة من بناء العمارة . وله ذوق رفيع اعترف به كل من شاهد أو سمع أو قرأ تفاصيل النظام الذى رسمه لبناء «بغداد» وقصر الخلد والقبة الخضراء . وبنى الرصافة لابنه وبنى الثكنات .

وكان يقف بنفسه من الصباح الباكر الى المساء المتأخر ، لا يجهد ولا يضيع بالملاحظة والأمر . ولم يقف أياماً ، وإنما وقف شهوراً . لأنه كان يبنى مدينة ضخمة هى بغداد .

وقد أعانته على ذلك انقطاعه عن الشهوات . وقوة ارادته . وصلابة بنيانه وإيثاره الحشن من الطعام واللباس . وكان ورعاً ، يقوم الليل . ويسبغ الوضوء ويصلى ماشاء الله أن يصلى .

..

وقد وصف المؤرخون يومه بأنه كان يشغل صدر نهاره بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف . فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف وشاور سماره .

فإذا مضى ثلث الليل قام من فراشه فأسبغ وضوءه وأقام فى محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيجلس فى ايوانه . وقد أحب التنقل ، وزار أغلب انحاء الامبراطورية فى آسيا ، ذهب الى خراسان وفلسطين والشام وتعددت زيارته الى مكة .

وقد ضرب المثل بحكمته وحرصه على المال ، حتى انه رأى فى داره قنديلاً معلقاً وكان الموضع بين الضوء والظلمة . فأمر بأن يطفأ . وقال لا يعاد هذا المصباح الى هذا الموضع الا وقت الحاجة من الليل أو من آخر النهار .

وكان حريصاً على تحرى العدل فى الحكم راغباً فى أن يصل الى ضمائر الرعية لدفع الظلم عنها .

وقد عرف بضبط النفس والقدرة على مواجهة خصومه . فقد روى عنه انه وقف يخطب فقام رجل ، وقال يأمر المؤمنين : اذكر من أعنت فى ذكره فقال له مرحباً : لقد ذكرت جليلاً وحذفت عظيماً . وأعوذ بالله أن

أكون ممن اذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالانتم والموعظة منا بدت ، ومن عندنا خرجت ، وأنت يا قائلها فأحلف بالله ما الله أردت . انما أردت أن يقال قام فقال ، فعوقب بضر مأخوذاً بها . وملك وإياكم معشر الناس وأمثالها .

ولى الخلافة بعد وفاة العباس فوطد الملك وقاوم العلويين ورددهم وحاربهم وقد مهد بذلك لابنه المهدي وقد ترك له الأموال المصادرة وأوصاه بردها الى أصحابها ليكسب مودتهم .

وقد اعتل المنصور وهو فى طريقه الى الحج . ومات قبل أن يبلغ مكة وقيل ان الفرس كبا به فوق ظهره ودفن بستر ميمون .

هذه اللعنات النفسية للمنصور فى بعض تصرفاته وشماله تعطى صورة الرجل القوى الثابت القلب . وهو الرجل الذى قتل أباً مسلم الخراسانى بعد أن رأى أنه يناقسه سلطانه وان الدولة لا يقوم فيها سلطانان . ولا شك أن قتله لأبى مسلم رمز على دهائه الضخم البالغ ، فقد كان يعرف مقامه بين جنوده ، وكان اسمه الملع من اسم المنصور ، وهو الذى وطد لهم الدولة وقام بالانقلاب الذى أودى بالدولة الأموية .

وقد خشيته أبو العباس فى خلال فترة حكمه القصير . فلما ولى الحكم أبو جعفر المنصور قطع فى الأمر وتحرر منه . وذلك بعد أن قذف به فى نحور العدو حتى يخلص منه أو من عدوه الآخر فلما خلصه من أعدائه قضى عليه وألقى برأسه مع الذهب لجنوده .

ومن يطلب لنفسك أو يردده

فى الحرمین أو أقصى الثغور

هارون الرشيد

عندما أوقع الرشيد بالبرامكة ، وقتل جمعاً وسجن أباه وأخوته وصادر أموالهم حاولت فاطمة زوجة يحيى ، وهى التى أرضعته وربته أن تلقاه ، فأبى الرشيد مقابلتها مع أنه كان قد قطع على نفسه وعداً ألا يحجبها قط وما استشفعته فى أحد إلا شفّعها ، فلما طال بها الالتماس • خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لثامها ، محتفية فى مشيتها حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب • فقال : ظنر أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد الى شفقة أم الواحد •

فقال الرشيد : ويحك يا عبد الله : أو ساعية ؟ قال نعم حافية •

قال : ادخلها يا عبد الملك فرب كبد غذتها ، وكربة فرجتها ، وعورة سترتها •

فدخلت فلما نظر اليها الرشيد داخلته محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس وأكب على تقبيل رأسها • ومواضع ثدييها • ثم أجلسها معه فقالت : يا أمير المؤمنين •• أيعدو علينا الزمان • ويجفونا خوفاً لك الأعوان • ويحردك بنا البهتان ، وقد رببتك فى حجرى وأخذت برضاعك الامان من عدوى ودهرى ؟

فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟

قالت : ظنرك يحيى وأبوك بعد أبيك • ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين فى نصيحته ، واشفاقه عليه وتمرضه للحتف فى شأن موسى أخيه •

فقال لها : يا أم الرشيد •• أمر سبق •• وقضاء حم •• وغضب من الله نفذ •

قالت : يا أمير المؤمنين ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب •

قال : صدقت ، فهذا ما لم يمح الله •

تلك هى نهاية القصة فإذا أدرنا عقارب الساعة الى الوراء سبعة عشر عاماً • كان ذلك ذات ليلة ، وهارون بن المهدي فى قصر بعيد عن بغداد مسيرة يوم ، خائفاً يترقب ، عندما دخل عليه فى جوف الليل ، شيخ وقور ، كان قد ربى الأمير ، ذلك هو يحيى البرمكى الذى مالبث أن أبغض هارون وقال له : قم يا أمير المؤمنين ••

فقال الرشيد : كم تروعنى اعجابا منك بخلافتى . وأنت تعلم حالى
عند هذا الرجل - يعنى الهادى - فان بلغه هذا فما تكون حالى ؟
قال له يحيى : هذا خاتم الملك .

هنالك علم الرشيد أن أمور الملك قد ألقيت اليه . ولم يلبث أن قال
ليحيى بن برمك : أشر على . . ثم لبس ثيابه وصلى وترك «عباباذ» وولى
وجهه شطر بغداد وقلد الرشيد يحيى بن خالد البرمكى الوزارة . وقال له :
قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى اليك فاجكم فى ذلك بما ترى من
الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وامضى الأمور على
ما ترى .

ودفع اليه خاتمه .

ومضت الأيام . . وتوطدت أواصر الحب بينه وبين جعفر ، حتى بلغ
ذلك مبلغه من الخيال فقبل انهما كانا يدخلان جلبابا واحدا ، وإن جعفر
كان يقضى فى أدق الأمور دون أن يرجع الى الرشيد .

ونظر الرشيد ذات يوم من نافذة قصره على نهر دجلة فرأى قصر
البرامكة على الجانب الآخر ، والزحام حوله شديد والحيول تصهل والارض
تعج بالناس وليس أمام قصره شئ هنالك تنبه الرشيد الى أمر سلطانه
الذى أوشك على الضياع . . ثم توالى الارهاصات والأحداث . كان يطلب
المال فلا يصل اليه . . وظفر الرشيد باعتقال يحيى بن عبد الله الزعيم
العلوى على أثر انهيار ثورته فى بلاد الديلم وعهد به الى جعفر البرمكى
ليسهر على اعتقاله فأطلق جعفر سراحه خفية .

وقال ابن خلدون : «انما نكب البرامكة ماكان من استبدادهم بالدولة
واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل
اليه فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى أمور
ملكه فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططوها
بالرؤساء من ولدهم ، فأورث ذلك عند مخدومهم نواشى الغيرة والاستنكاف
من الحجر والأنفة وكامن الحقوق التى بعثتها منهم صفائر الدالة !!!
وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كباثر المخالفات كقصتهم فى يحيى بن
عبد الله . . .

وبلغت خشية الرشيد غايتها عندما علم أن جعفر يقول فى مجالسه :
ليست البطولة هى بطولة أبى مسلم الذى نقل الدولة بعد أن قتل الالوف
المؤلفة ، ولكن البطولة هى نقل الدولة من غير اراقة قطرة دم .

وأحس الرشيد أن البرامكة يريدون نقل الملك الى العلويين .

وكان الصراع بين وزير الرشيد : الفضل بن الربيع وزوجه السيدة
زبيدة ، وهما العربيان وبين البرامكة الفارسيين . وزاد هذا الخلاف
حدة وجود ابنى الرشيد : الأمين بن زبيدة والمأمون بن مارجل الفارسية .

ولم يثبت الرشيد أن صمم على الإيقاع بالبرامكة عام ١٨٧ . وقد أنفذ أمره في ليلة واحدة بقتل جعفر بن يحيى واعتقال سائر البرامكة واستصفاء أموالهم .

وقد ظلت جثة جعفر منصوبة على جسور بغداد حتى مر بها الرشيد وهو متوجه إلى خراسان عام ١٩٢ فأمر بانزالها وإحراقها .

* *

وذلك أبلغ حدث في حياة الرشيد الذي ظل مرتبطا بتاريخه وحياته إلى أن قضى ولا شك أن « هارون الرشيد » يقف على رأس انقصة التي بلغت الدولة العباسية ، بل التي بلغت تاريخ الإمبراطورية الإسلامية كلها .

هذا المجد الذي لم يلبث طويلا بعد ذلك . والذي كان خلال عهد المأمون امتدادا للدفعة القوية التي بلغها الملك في عهد الرشيد . وحسبك بالخليفة الذي روى عنه أنه قال للسحابة المارة : « امطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » .

وقد اختلف المؤرخون حول الرشيد اختلافا شديدا . فذهب بعضهم إلى أنه كان يصلي مائة ركعة كل يوم . وأنه كان يتصدق بمائة ألف درهم وأنه كان يحج عاما ويغزو عاما ، وذهب البعض الآخر إلى القول بأن قصره كان صورة صحيحة لقصص من ألف ليلة ، وأنه كان مرحا طروبا يقيم مجالس الغناء والأنس تنتظمها أكواب الراح ، وأنه كان يقضى أغلب وقته بين الغناء والموسيقى والمغنيات والقيان .

على أنه ليس من الغريب أن يجمع الرشيد بين الصورتين المتباعتين اللتين تجمعهما دلالة الشخص القوى الحيوية ، الدافق الشباب ، البالغ الفتوة . وليس على الرشيد من بأس على ضوء طبعه هذا من أن يعيش هاتين الحياتين معا ، ويمزجهما على نحو من الاعتدال فهما قريبان جدا ، يلتقيان دائما إذا بعدت عنهما مبالغات القصاص وأحاجي الرواة ، وليس على الرشيد من بأس أن يعقد مجالسه فيستمع إلى السمر والغناء والموسيقى ، ولا يمنعه ذلك من أن يصلي لله مائة ركعة ، وأن يمضي إلى الحج عاما والغزو عاما . وكان يتواضع للعلماء . قال أبو معاوية الضيرر أكلت مع الرشيد فصب على يدي الماء رجل ، فقال لي أيا أبا معاوية أتدري من صب الماء على يدك ؟ فقلت لا يا أمير المؤمنين . قال أنا فقلت يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا أجلا للعلم ؟ قال نعم .

وكل وقائع حياة الرشيد التي بين أيدينا . تدل على أنه أمضى حياة جادة كل الجدة فقد حفلت حياته القصيرة بالغزو والجهاد فما كان ينتهي من غزوة حتى يقترح أخرى . . كذلك كان منذ شبابه الغض إلى اليوم الأخير من حياته .

وأبرز مظاهر حياته أنه رجل حرب وقاتل . . اشربت روحه الجهاد . وقيادة الجيوش ونضال العدو . وكانت أغلب غزواته في أرض الدولة البيزنطية . فلما ولي الملك نظم الشواتي والصوائف . وحرض على إرسالها به خرج بنفسه إلى قتال الروم بعد أن نقضوا المعاهدة ومنعوا الجزية .

وكان حفيا بمواجهة الخصوم والأعداء لا يهدأ ولا يستريح الا لنصر
يكسبه من وراء نصر . فلا يلبث أن ينتهي من صراع الأعداء على حدود
الدولة البيزنطية حتى يعاود الصراع مع العلويين الذين يظهرون هنا أو
هناك محاولين الفتنة أو منازعين على الملك .

هو فى هذا كله صلب العزيمة ، قوى العود ، غاية فى البسالة
والحيوية ، وهى صفات لاتضع صاحبها فى صف المتقطعين للهو أو العاكفين
على الهوى .

وفى هذا يقول الشاعر :

ومن يطلب لقاءك أو يردده ففى الحرمين أو أقصى الثغور

وقد بدت هذه النفسية المصارعة الجارفة ، فى أوضح صورها وأقواها
حين استبان له غدر البرامكة ، فصرعهم فى ليلة واحدة ، وفق أسلوب غاية
فى الجرافة والحسم والبتر ، ولم يقبل فيهم شفاعاة أى شفاعاة . . حتى شفاعاة
ظئره التى أرضعته . . وربته . . وكانت عنده شفاعاة لاترد لها شفاعاة .

وليس شك أن هذا التصرف الجرىء الحاسم مع البرامكة ، بعد أن
أطلق أيديهم فى أمور الملك سبعة عشر عاما ، حتى بلغوا مكانا عاليا . .
واستطاعوا أسهمهم ، وعلا صيتهم وفى الوقت الذى كان يعلم أنهم هم الذين
أبلغوه الملك ، ومكنوا له فيه لدليل أكيد على قوة نفسية الرشيد . قوة
تزرى بما عرف عن جـده المنصور . وإن ظلت نفس الرشيد تحتفظ
بطابعها الخالص من السماحة والركة واللين والمرح والاشراق .

وآية هذا الذى نذهب الى القول به فى نفسية الرشيد أنه فى رحلته
الأخيرة الى خراسان حمل اليه أحد الخوارج . وكان فى أشد حالات المرض
بل وفى سكرات الموت ومع ذلك أمر بقتله أمامه . وظل يملأ نظره من دمه
المهدور وهو مسجى على وشك أن يبلغ غاية الأجل من علته .

وكان الرشيد خلال حياته التى لم تتجاوز الخامسة والأربعين ، حامل
لواء الحضارة الإسلامية فى الشرق - بالإضافة الى منصبه كخليفة
للإمبراطورية - فقد احتضن الثقافة والفن ، وشجع رجال الشعر والموسيقى
والغناء . وأفسح لهم ومكنهم من الابتكار والتجديد والابداع ، وعنى بالتأليف
وأغان الفقهاء . وفتح لهم أبواب البحث والقضاء . وعقد لهم مجالس
البحث والمساجلة والمناقشة فى مختلف المسائل .

وقد اتصل بشارلمان حاكم فرنسا وجرمانيا وإيطاليا ، وأرسل
اليه وفدا وأهدى اليه مفاتيح بيت المقدس علامة على الود بين الشرق والغرب
وبين الاسلام والمسيحية .

ثلاث نجوم كانت تدور فى فلك الرشيد .

أمه الحيزان ، وزوجه زبيدة ، ووزيره جعفر .

أما الحيزان فقد كرهت الهادي لانه كان يصرفها عما تبغى من مظاهر السلطة والنفوذ ، أما الرشيد فقد أباح لها ماتشاء منه ، واليها يرجع بعض الفضل فى أن يقفز الى الخلافة قبل أن يجيء دوره فى ترتيب الولاية وولاية العهد .

وأما زبيدة فزوجه الأولى التى كان يؤثرها على كل زوجاته وسراريه وجواريه وهى أم الأئمين . وكانت ذات رأى وتدبير ، فكان الرشيد لا يرى بدا من أن يأخذ بمشورتها وأن يطلق يدها فى انشاء القصور . وتعمير المساجد وحفر العيون المعروفة باسمها .

أما جعفر فكان محببا الى نفسه غاية الحب ، حتى لقد روى بعض المؤرخين أنهما كانا يدخلان فى ثوب واحد ، وهو ان قيل على أنه ضرب من المجاز فانه يصور مدى ماكان بينهما من الحب الصادق والود الأكيد .

وروى أن جعفرا تصرف باسم الرشيد فى أمور غاية فى الدقة فأقره الرشيد وقبل منه ورضى عنه . ولم يمنع هذا جعفرا من أن يقع به ما وقع عندما قضى فيه الرشيد بأمره .

وتلك شميلة من شمائل الرجل الفذ . تثبت فى وضوح قوة عارضته ولو كان كما روى عنه من الاسراف فى الترف لما استطاع أن يحسم أمره بالقوة والبراعة والحكمة فى الوقت المناسب .

فاذا اخذ عليه بعد ذلك انه بايع للأئمين بولاية العهد . والمأمون بخراسان وللقاسم بولاية العهد بعد المأمون فى عقد واحد . وكان هذا الذى فعل الرشيد بعيد الأثر من بعده . وهذا خطأ من أخطاء الساطفة المتحمسة والعقل الراغب فى حسم الامور الذى يظن أنها تنقاد من بعده وفق سلطانه وإرادته . وهو أشبه بما قيل عن رضائه عن صداقة جعفر والعباسة . وجمعهما فى حضرته وانفاذ أمره بزواجهما دون أن يلتقيا كما يلتقى الأزواج .

فاذا صح ماذهبنا اليه من أمر الرشيد الذى عاش حياته مقسما اياها بين الحرب والحج ، ومغالبة الأعداء والخصوم من الروم والعلويين والبرامكة فلا يمنع هذا الطبع المشبوب بالحماسة والقوة والحيوية من أن يرد موارد المتاع بالسمو ومجالس الطرب . فذلك يتمشى مع طابعه ولا يتعارض معه بحال من الأحوال .

وقد أداه طبعه السياسى الواضح هذا الى أن يرسم الخطط للأمور التى يمكن أن تقع بعد عهد طويل ، ولا بأس عليه من أن يخطئ خطأ المجتهدين لاختطأ الجامدين فى أن ينظم ملكه من بعده على صورة مبايعة طويلة المدى لأولاده أو أن يقتل الخارجى وهو على وشك الموت .

ولا شك أن تصرفه فى كسب صداقة شارلمان ، واهدائه اياه مفاتيح

بيت المقدس هو من وعيه السياسى النابه الذى أراد به أن يحول بين عاديه الصراع بين الشرق والغرب وهو ما امتحنت به المملكة الاسلاميه من بعد .

وجملة القول : ان الرشيد كان من أبرع ساسة الشرق ، وخلفاء الاسلام . وانه لم يكن بالمترف اللين الناعم كما صوره صاحب الأغاني . أو كتاب ألف ليلة . ولكنه كان قاسيا جبارا . فيه روح المجاهد المحارب . وعاطفة الشباب الفوار الذى لايرضى الهزيمة والذى يتعقب خصومه ويفتك بهم . والذى يحب مجالس العلم والفن ويلقاها مبتسما طلقا ، وان طوى النفس على عزيمة ماضية تبرز فى قوة حين يتصل الأمر بشخصه أو سلطانه .

ومن قول القاضى الفاضل : ما أعلم أن ملك رحلة فى طلب العلم الا للرشيد فانه رحل لسماع الموطأ من مالك فى المدينة وكان من حوله دائما أبرز رجال العلم فى مقدمتهم الأحمصى وأبو عبيدة والكسائى والواقدى وأبو يوسف ومروان بن أبى حفصه وأبو العتاهية ، مات عام ١٩٣ .

* أيام السرود فى حياتى أربعة عشر يوما •

عبدالرحمن الناصر

شخصية باهرة بجوانبها المتعددة ، وطبيعتها الواسعة الأفق ،
ونفسياتها العميقة الفور . وعرف بالوسامة والطلاقة وحسن السمات
وكرم الخلق وقوة الإدراك .

وصف بأنه أبيض أشبهل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم • أحبه
الناس • وعشقه الجماهير لهيبته ولسماحة نفسه ، ولخلال فيه أبرزها
الوفاء والرعاية والبطولة •

ولى الحكم فى سن الحادية والعشرين • وأعاد مجد الأندلس بعد أن
أوشك على الانتقاض • وكان لشجاعته وشبابه وفروسيته أبعد الأثر فى
حب الجيش له وتعلقه به فقد كان مقداما شجاعا مفعم النفس بالحماسة
لاستعادة مجد العرب وعظمة المسلمين ، ينطلق فى مقدمة جنده ، يلهب
أعصابهم ويملا أرواحهم بالحماسة والإيمان فينقضون انقضاض الشهب
ويندفعون اندفاع القضاء الغلاب •

وقد دانت له مدن الأندلس واحدة بعد أخرى ، وفتحت له أبوابها
صاغرة وأذعنت له قرطبة وإشبيلية وإطاعته البربر ، وأعلن موقفه فى
صراحة : انه لايقبل الشقاق وتمكن بقوة عارضته أن يدعو رؤساء القبائل
الى الوحدة ، وان يسمح بالحزم والحكمة على القلوب ، فلم يسمح بأى عصيان
ورفض أن ينزل عن أى جزء من مملكته •

وهو - فى خلال معاركه - رحيم بالناس رفيق ، لا يدع جنده المأثمة
من مآثم الفتح وقد مكنت له هذه خلال فاستطاع أن ينفذ الى مرسية
وان يهاجم طليطلة ، وأتاح له قوة شخصيته أن يعيد ماضييه أسلافه
فى خلال ثمانية عشر عاما قبل ولايته •

وقد توالى حروبه وفتوحه وانتفاضات الأعداء له • فكان يواصل
الغزو ولا يدع لهم الفرصة ليحرزوا أى غنم أو نصر ويعاود بعث حملاته
للاستيلاء على الحصون والمعاقل ومطاردة الثوار دون أن يلجأ الى القسوة ،
ومع اتباع أسلوب الرفق والتسامح حتى لقد قبل من العصاة طاعتهم ••
وأبدى نحو النصارى الذين أذعنوا للطاعة كرما وتسامحا مما سجله
المؤرخون الأوروبيون وفى مقدمتهم دوزى •

وعندما ظهرت المجاعة عام ٩١٥ هـ بالأندلس قاومها ببراعة وبذل
المعونة والغوث لشعبه ووزع المؤن والصدقات الوفيرة • ولطف المنحة ،
وظل الى ذلك يقظا قويا يرقب حركات الثوار فى حذر وأهبة • ثم سبر
قوانه مرة أخرى لقمع الثورة حتى مات زعيم الثورة عمر بن حفصون فى
غرب الأندلس •

وقد أمضى أربعة أعوام كاملة يفزروهم حتى انتهى الأمر بسحقهم والاستيلاء على قواعدهم نهائيا عام ٩٢٨ هـ ولم يدع الثوار في الجهات الأخرى فسار الى المناطق النصرانية فأدال منها وعاد مثقلا بالفنائب والسبي وأخضع الطوائف واقتحم حدود ليون وزحف على « سموره » وكانت غاية في المناعة تحيط بها سبعة أسوار شاهقة وكان بين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ..



وعندما استولى على حصن « بيشتر » وقف على مشارف الحصن . ونظر من بعده الشاهق الى القمم الشديدة الانحدار التي تحيط به . وامتلات روحه عاطفة واهتزت نفسه فلم يلبث أن سجد لله شكرا .

وعندما ضعف مركز الخلفاء في المشرق دعا لنفسه بالخلافة فأمضى ثلاثين عاما يحمل لواء الخلافة . وقد استتب له الأمر ، واستقرت الأحوال ودخل الأندلس عهد من عهود السلام والحضارة ، مكن له أن يؤدي رسالته كمنار للحضارة في عصر عمت فيه الظلمات أوروبا . وكان لحكمة عبد الرحمن وعظمة شخصيته أبعاد الأثر في هذا الدور الخطير حين استطاع أن يدعم الصلات بين العرب والبربر والاسبان والمسلمين ومدعى الاسلام .

وقد بلغ من عزة الملك ورفعة السلطان بالأندلس ان كانت ملوك الفرنجة والروم تتقرب اليه تطلب مهادنته وتهدي اليه أنفس الدخائر ومن جمعهم قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية فقد رغب في موادعته وبعث اليه عام ٣٣٨ وقدما من قبله بهدية له ، فتأهب الناصر لورودهم ، واحتفل بقدمهم احتفالا رائعا أحب أن يقوم فيه الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة ملكه وعظيم سلطانه وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة في دولته .

وكان الناصر قوى الشخصية جمع كل سلطة في الدولة واستأثر بمقائيد الحكم في يده وقاوم كل من حدثته نفسه أن ينتقض عليه أو يحاول الحد من سلطانه . وقد قتل ولده عندما علم أنه يتآمر عليه . وأعدم كل من اتجهت اليهم شبهة الاشتراك معه ، وكان أبلغ حرصه على اصلاح الجيش وحشد الجند من سائر انحاء اسبانيا والمغرب مستكثرا من الأسلحة والدخائر .

وقد أعجب بشخصية عبد الرحمن كل من عرفه واتصل به . وكان عبد الرحمن الى هذا المظهر الجاد والفروسية في الحرب والحكمة في الادارة والبراعة في الحكم والمرونة في السياسة انسانا يحب له قلب يخفق وعاطفة رقيقة تضطرم بالحنان والأشواق .

وقصة حبه لزوجته « الزهراء » رمز على هذه النفس التي أحبت فاستجابت لمن تحب ، فقد طلبت اليه الزهراء أن يبني مدينة باسمها فبنى مدينة الزهراء . فكان لها خمسة عشر ألفا باب ملبس بالحديد والنحاس المموه . وكان سقف بهو الخليفة وحيطانه من الذهب وبنافورته تمثال عجيب أهده اليه ملك الروم وفي وسط البهو حوض مليء بالزئبق الرجراج . والى كل جانب منه ثمانية أبواب من العاج والأبنوس قد رصعت بالجواهر . فاذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب ولاقت اهتزاز

الزئبق ملأت اليهو ببريق يشبه لمعان البروق حتى لقد يحجب الحاضرون عيونهم بأيديهم من شدته .

وقد حشد الناصر لمدينة الزهراء أمهر الصناع وجلب لها الرخام الأبيض والأخضر والوردى من قرطاجنة وتونس والشام وقسطنطينية وكان يشتغل فى بنائها خمسة آلاف رجل وتكلف ثلثمائة ألف دينار كل عام فى مدى خمسة وعشرين عاما . وقد أنشأ مسجدا عظيما م بناؤه فى ثمانية وأربعين يوما . عمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع .

وقد نمت قرطبة فى أيامه ، حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف . ومساجدها ثلاثة آلاف مسجد وحماماتها ثلثمائة وضواحيها ثمانية وعشرون .

وزاد انخراج زيادة عظيمة باستتباب السكينة والامن . وبلغت الجباية فى عهده خمسة آلاف ألف واربعمائة ألف وثمانية ألف دينار . وخلف عند وفاته فى بيوت المال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف مليون دينار . وقد حال ثلث الجباية للجيش ، وثلثه للبناء والمنشآت العامة وثلثا للطوارئ .

وقال البغدادي انه كان أغنى ملوك عصره .

وقد ترك عبد الرحمن من البنين أحد عشر ولدا . وقد سأل عن البناء الضخم فقال : انه أراد به مواجهة الفرنجة بمظاهر اشد قوة ليكون ملك المسلمين اشد هيبة ومكانة ولكن الناصر لم يكن الى ذلك سعيدا كل السعادة بالرغم من العمر المديد والنصر المؤزر والحب الموفق والسلام الذى عاشت فيه الاندلس خلال حكمه .

يقول ابن خلدون « وجد بخط الناصر رحمه الله ان أيام السرور التى صفت له دون تكدير كانت يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . ويوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما .

فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وتحايها بكمال الأحوال لأوليائها هذا الخليفة الناصر حلف السعود ، المضرب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام . ولم تصف له الا أربعة عشر يوما فسيحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة لا اله الا هو . . .

وقد برع الناصر فى النحو والشعر والتاريخ . ومهر فى فنون الفروسية شجاعة واقداما فى المعارك التى اشترك بها وكان عالما أديبا بهوى الشعر ويقرب الأدباء وكان له شاعره الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد . . .

يقول دوزى ان عبقريته الشاملة التى تدعو انى الاعجاب لم يصرفها نحو الصفائر بل كما تدعو اليه أسعى الأمور .

وقد مات سنة ٩٦١ م - ٣٥٠ هـ عن واحد وسبعين عاما حكم منها أكثر من خمسين عاما وهو أطول حكم لخليفة مسلم .

* ان حارس الدنيا لا ينام اذا نامت الرعية

الحاجب المنصور

يهر « محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري » من يطالع تاريخه بتك العصامية وذلك الصمود للأحداث والثبات وقوة العزيمة . فقد تطلع الى المجد . وهو شاب مغمور وظل يعمل بقوة ويزيح من طريقه العقبات والصخور حتى أصبح بعد كفاح طويل الحاكم الاول للاندلس كلها .

ولكن أسلوب الحاجب المنصور لم يكن أسلوبا مثاليا ولكنه كان أسلوب السياسيين بما فيه من مكاييد فعلية ومؤامرات ودسائس ورغبة في الوصول الى الغاية أيا كانت الوسيلة وقد عرف بالقسوة والصرامة في تحطيم خصومه وتمزيق منافسيه .

كان في أول شبابه طالبا مغمورا بجامعة قرطبة . وقد نشأ في بيت فقه وعلم وكان حسن الأسلوب جيد الكتابة . ويقول المقرئ في نفح الطيب : « قالوا انه كان يجلس في دكان عند باب الفصر ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان الى أن طلبت « صبح » من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس الجلوس اليه من فتيان العصر فاستحسنت كتابته وعينته أمينا لبعض شئونها » .

وكان يكتب الرسائل لخدم القصر وقد وثق بذلك علاقته بكبير الحجاب الذي رأى فيه براعة وتفننا .

وقد أعجبت به صبح أم المؤيد وزوج الخليفة هشام التي أحبته ، وكان جبهما بعيد الاثر في التطور الخطير الذي ظل المنصور يقطع به المراحل حتى بلغ أكبر منصب في الدولة .

وقد وصل بأنه كان يقضى ليله مكبا على الفكر والبحث والتأمل . وبين يديه دواته وقلمه وورقه . يكتب ما يعن له من خواطر وآراء . ويظل هكذا حتى قبيل الفجر فيهجع ساعه ثم يقوم للصلاة .

قال له شعلة : لقد افراط مولانا في السهر وبدنه يحتاج الى أكثر من هذا النوم وهو يعلم ان السهر يحرك عليه العصب عنده . فقال له ان حارس الدنيا لا ينام اذا نامت الرعية . وانه لو استوفى نومه لما كان في دور هذا البلد عين نائمة .

كان شديد الثقة بنفسه . عميق الفهم لغرضه . فيه عزيمة واعتداد . وسيم المحيا طموحا مضطرم العزيمة . عين مشرفا لادارة أملاك عبد الرحمن

ابن الحكم - عين براتب قدره خمسة عشر دينارا في الشهر . ثم اضيف اليه النظر على الخزانة العامة ثم عين للنظر في خطة المواريث فقاضيا لكورة اشبيلية .

وقد افتن في خدمة صبح وارضائها . وقدم لها فنونا من الهدايا والوانا من التحف منها قصر صغير من الفضة بديع الصنع والزخرف . حتى ملك قلبها واسر لبها . فدفعته الى الامام وحطمت الحوائل من طريقه واعانته على خصومه .

وقد استطاع بذلكه وكفايته وعطف صبح ان ينال ثقة الحكم فلما مات كان هو الذي يقف وراء صبح . وقد أتاحت له الفرصة ليجمع السلطات كلها في يده . فقد كان عبد الرحمن بن الحكم حدثا في الثانية عشرة ، وكان ابن عامر هو الذي نظم البيعة له في حياة والده بعد ان خاف ان يتولى الملك المغيرة اخو الحكم . فلما مات الحكم وخيف انقضاء الصقابة الذين كانوا يؤيدون المغيرة ارسل ابن ابي عامر الى الحكم من قتله . وقد كانت « صبح » ترى فيه حامى عرض ابنها . فرفعته الى مرتبة الوزارة وبدأ التجافى بينه وبين الحاجب جعفر ثم ازداد اضطراما وزاد الصراع وانتهى بأن حمل على الصقابة ثم اعتقل جعفرا حتى مات .

وبدأ ابن ابي عامر يحجب الأمير هشاما الذي كان ميالا الى اللهو عن الشعب فلم يعد يره أحد . وربما أركبه وجعل عليه بونسا فلا يعرف . واذا سافر وكل من يفعل به ذلك .

وكان ذلك جريا منه على خطته في جمع كل سلطات الخلافة في يده وسحق كل عقبة .

يقول ابن خلدون « ثم تجرد ابن ابي عامر لرؤساء الدولة من عانده وزاحمه فمال عليهم وحطمهم عن مراتبهم . وقتل بعضهم ببعض . كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل شأفتهم ومزق جموعهم » .

وقد بلغ به الأمر زيادة في التحوط ، ومضيا في تنفيذ خطته أن أنشأ مدينة جديدة في ناحية قرطبة على ضفة الوادى الكبير وسماها « الزاهرة » ونقل اليها خزائن الأموال والأسلحة . ونفذ الأوامر باسمه ونقشه على السكة .

وغزا المنصور خمسين غزوة عاد منها جميعا منتصرا . فقد كان فارسا وكان خشنا لم تغيره الحضارة ولم يذهب الترف قوة عزيمته . وقد أغار عدة أغارات موفقة جماعته موضع اعجاب الناس وتقديرهم . وكان أوقعها غزوته لنصارى الشمال . وقيل من حزمه انه كان اذا قدم من غزوة لا يحل من نفسه حتى يدعوا صاحب الحيل فيعلم مامات منها وصاحب الابنية ليعلم ما وهى من أسواره وقصوره ودوره .

وقد تعلق به الجيش بعد أن أضاف اليه فصائل جديدة من افريقية ونصارى الشمال واتيح له الاستيلاء على ليون وبرشلونة .

وقصة المنصور في تحطيم خصومه والواقفين على طريقه الى الملك

تعطى صورة تلميذ من تلاميذ مكيا فيلي . وقصته فى عزل ابن المصحفى وإيقاعه بين المصحفى ورئيس الشرطة ، وغالب رئيس الوزراء ، واتهامه الاول بالخيانة والقائه فى السجن ليعطى صورة قسوته وجبروته فى فرض سلطانه وتعزيز مكانه .

ولعل أبرز صورة لعزيمته الجبارة هو أنه بينما كان يتحدث مع الناس فى بعض شأنه اذا براءة لحم يشوى . ثم ظهر أنه قد أحضر كواء لكى ساقه بينما كان يناقش من حضروا مجلسه فى هدوء وسكينة . والحادثة الاخرى أنه قتل ولده صبيرا بالسيف لانه خالفه فى أمر من الامور .

وقد وصف بأن جسمه خاضع لعقله . وان حب أصبح لم يفتنه لدرجة ان يصرفه عن المجد . وقيل ان لذاته كانت خاضعة للطموحه . حتى أنه كان يحتفظ بهدونه فى أشد أوقات المحن والشدائد .

وقد عاش حياته يعمل ويرسم خطط الحرب، ويعد القوات ليدفع بها فى نحر العدو ولم يعرف عنه لهو ولا خمر ولا مائمه . كأنما قد فطم نفسه عن الشهوات . وجردها من الاهواء . وظل يعمل حتى قضى وهو فى خضم الحوادث . واستشهد فى ميدان المعركة .

ولا شك أنه أذل خصوم العرب وأحنى رعوس أعداء الاسلام . وفرق وحدتهم حتى تملقه زعمائهم والتمسوا رضاه .

وقد كان هو قمة المجد فى الأندلس فلما انتهى اتطوت صفحة الفرد، وبدأت عهود الانحلال والضعف والانحدار والتفكك . ولم يبق من يخلفه على هذا . وقد أمضى عشرين عاما يقبض على الأندلس ، ولم تبلغ ما بلغت فى عهده .

وقد اختلفت صبح معه فى آخر أيامها حينما استفاقت من نشوة حبها . واحسنت بأن الرجل قد ساءب ابنها كل سلطنة . فمضت تؤلب عليه . ولكن المنصور كان قويا فى هذه الجولة أيضا واستطاع أن يقضى على مؤامراتها حين اتفقت مع زيرى بن عطيه حاكم المغرب الاقصى . لقد كان أكبر من الحوادث . ولم يكن هناك اذ ذاك من يستطيع أن يقف فى وجهه .

ولا غرو فالمنصور هو ثالث ثلاثة فى الأندلس : الداخل والناصر والمنصور .

* « ان حبي للجهاد ينسيني طيب دمشق ورقة هوانها » *

نور الدين الشهيد

يقول ابن الاثير : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام . والى يومنا هذا . فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز احسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، فقصر ليله ونهاره على عدل ييسره وجهاد يتجهز له . ومظامة يزيلها . وعبادة يقوم بها . واحسان يوليه . وانعام يسديه .

ويقول العماد الكاتب : كان في الحرب ثابت القدم . حسن المرمى صلب الضرب يتقدم اصحابه . ويتعرض لشهادة . وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير .

يقول عنه « ابن الاثير » : كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ، لم أر على ظهر فرس قط أشجع ولا اثبت منه .

وروى العماد : كان نور الدين بدمشق يلعب بالكرة ليروض خيله ويمرنها . فرأى رجلا يحدث آخر . ويشير بيده الى نور الدين فأرسل اليه يسأله عن حاله .

فقال : لى مع الملك العادل حكومة . وهذا غلام القاضي . فالتقى نور الدين الجوكان من يده . وخرج من الميدان . وسار الى القاضي . وهو حينئذ « كمال الدين الشهرزورى » وأرسل الى القاضي يقول له : انى قد جئت محاكما فاسلك معى مثل ما تسلكه مع غيرى . فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه . فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين . فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندى حق . قالوا لا : قال اشهدوا اننى قد وهبت له هذا الملك الذى حاكمنى عليه . وهوله دونى . وانى كنت أعلم أن لا حق له عندى وانما حضرت معه لئلا يظن أننى قد ظلمته فحيث ظهر أن الحق لى وهبته له .

والحق انه اذا ذكر الايمان المقرون بالجهاد والتصوف المرتبط بالدم فى سبيل الله فان أبرز اسم يمكن أن يحقق هذا المعنى هو : نور الدين الشهيد .

عزوف عن الدنيا . وحب الله . وصدق عزيزة فى سبيل جميع الامة العربية وسحق الصليبيين . حتى أنه قضى حياته كلها فى حروب دائمة . وبلغ به الورع انه حرم على نفسه الابتسام والفرح . وقال انه يخشى أن

يحاسبه الله عليه . وفي أرض المسلمين جندى من جنود الفرنجة . فقد روى له حديث مسلسل بالتبسم وطلب منه أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث فغضب لذلك وقال : انى لاستحيى من الله أن يرانى مبتسما والمسلمون محاصرون من الفرنجة .

وعاش مرابطا للعدو . ومن ذلك قوله : ان حب الجهاد ينسينى طيب دمشق ورقة هوائها وجمال أزهارها . وكان من أصبر الناس على الحرب وأبلغهم مكيده حتى وصف بأنه أبرع من ركب فرسا . وأثبت وأشجع . ولما فاتته الشهادة مرة ومرة ، أحس بالحزن وكان لا يلبث أن يردد : لقد عزمت على الشهادة غير مرة فلم أنل شرفها . ولو كان فى خير أو لى عند الله مكانة لرزقنيها . . وقد تحقق له ذلك من بعد ومات شهيدا .

وقيل أنه لم يكن أحد من القادة كنور الدين فى قيادة الجيوش . يتقدم أصحابه ويتعرض للموت . ويضرب فى صلابة وثبات قدم . وفى كل خطوة والمركة على أشدها ، يسأل الله أن يحشره فى بطون السباع وحواصل الطير . وإذا التقى الجمعان سجد لربه ومرغ وجهه وتضرع وقال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا . . .

ولعل أبرز مواقع صراعه مع الصليبيين موقعه « آنب » التى كانت فى صفر عام ٥٤٤ ، اذ حشد فيها الصليبيون حشودا كبيرة . وحاربهم نور الدين فى سنة آلاف فارس فهزمهم وصرع ابراهيم البرنس (أبو بيمونت) الذى كان مشهورا بشدة البأس وقوة الحيل وبعد السطوة وبغضه الشديد للمسلمين . كما أسر « جوسلين » الذى كان من شياطين الصليبيين وأبطلهم وأكثرهم عدا للعراب .

وقد استطاع فتح دمشق والاستيلاء عليها كما استولى على حارم وبانياس بعد معارك هائلة أبلى فيها أحسن البلاء . كما سقطت فى يده حصون الفرنجة الشمالية واحدا بعد واحد وفتح مصر بعد حروب شداد . بعد أن هاجمت جيوش الصليبيين ثغورها وحاصرت القاهرة .



وقد أعاد نور الدين سيرة العمرين : عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز . كان قواما ينزل المسجد بفلس . ولا يزال يركع ويسجد حتى يصلى الصبح . وكان يرفع يديه طويلا الى السماء ويتضرع ويبكى .

ولقد بلغ من ورعه أنه عاش على سهمه فى غنيمة الحرب ورفض كل مال أرسل اليه . ومن قوله : ان رقيبى رقيقة لا تطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله .

وعاش مدة حكمه يعقد مجالس الخلافات للنظر فى قضايا الرعية ومشاكلها حتى أحبه الناس وتعلقوا به حتى كانوا يضحون عنه بأرواحهم . . وكان الناس فى أشد القلق عندما أصابه المرض .

وامضى أيامه كلها غازيا وما من غزوة يدعو اليها الا ويجتمع له

الاحداث والمتطوعة والفقهاء والمتصوفة فقد كان يحب العلماء ويجمعهم اليه
ويبحث معهم أمور الدين .

وكان نور الدين ورعا بسيط الملبس خشن المآكل . قد نفذ يده
من ترف الدنيا وزخرفها ونذر نفسه للجهاد في سبيل الله . وقد عرف
بكثرة الهبات والصدقات . وقد حملت اليه الهدايا الرائعة فلم يكن
يلتفت اليها وانما وهبها لبعض من يزورونه من الفقراء .

وقد استجاب الله له فرزقه الشهادة . فمات في ساحة الوغى وهو
يحارب الصليبيين وينشر روح الكفاح والجهاد في سبيل الذود عن بلاد
الاسلام .

وكان أول من دعا الى الوحدة العربية للوقوف في وجه الفرنجة مؤمنا
بفكرته أكبر منه قائدا حربيا وسياسيا ولم يمت حتى خلف للعرب دولة
موحدة قوية في يد زعيم عبقرى هو صلاح الدين . فقد آمن بأن الوحدة
هى السبيل الوحيد لتحطيم قوة الفرنجة .

عبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برايه ، مستصحب لعزمه

صقر قريش

عبد الرحمن الداخل

قال أبو جعفر المنصور يوما لجلسائه : أخبروني عن « صقر قريش » من هو ، قالوا : أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الادواء . قال ما صنعتكم شيئا . قالوا : فمعاوية . قال ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال لا . قالوا : فمن ؟ قال عبد الرحمن بن معاوية . الذي عبر البحر وقطع القفر . ودخل بلدا أعجميا مفردا ، فحصر الامصار . وجند الجند ودون الدواوين . وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره . وشدة شكيته . ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلا صعبه . وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها . وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برايه مستصحب لعزمه . اقتحم جزيرة شاسعة المحل . نائية المطمع . عصبية الجند حزب بين جندها بخصوصية وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيته بسياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل به أبيهم . فاستولى فيها على أريكنه ملكا في قضيته . قاهرا لأعدائه . حاميا الذماره . مانعا لحوذته . خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه . ذلك لهو الفتى كل الفتى . لا يكذب مادحه .

ذلك هو عبد الرحمن بن معاوية الذي وصفه ابن حيان مؤرخ الاندلس فقال : كان عبد الرحمن راجح الحلم . راسخ العلم . نقيب الفهم . كثير الحزم . نافذ العزم . بريئا من العجز . سريع النهضة في طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة . لا يخلد الى راحة ولا يسكن الى دعة . ولا يكل الأمور الى غيره . ثم لا ينفرد في ابرامها برايه شجاعا مقداما ، بعيد العوز . شديد الحذر ، قليل الطمأنينة . بليغا مفوها . شاعرا محسنا . سمحا مقداما . طلق اللسان .

ويصور عبد الرحمن الداخل هجرته فيقول :

لما أعطينا الأمان ثم نكث بنا على نهر أبي فطرى . وأبيحت دماؤنا اتانا الخبر . وكنت منتبذا من الناس . فرجعت الى منزلى آيسا . ونظرت فيما يصلحني وأهلي وخرجت خائفا حتى صرت على قرية من الفرات . ذات شجر وغياض . فبينما انا ذات يوم بها وولدى سليمان يلعب بين يدي وهو يومئذ أربع سنين فخرج عنى ثم دخل الصبي من باب البيت باكيا فرعا . وجعلت أدفعه وهو يتعلق بى . فخرجت لانظر واذا بالخوف قد نزل

بالقربة ، وإذا بالرايات السود منحنة عليها . وأخ لى حديث السن يقول:
 النجاة النجاة فهذه رايات المسودة . فأخذت دنائير معى ونجوت وأخى .
 وأعلمت أخواتى بمتوجهى فأمرتهن أن يلحقننى مع مولائى بدرا . وأحاطت
 الخيل بالقرية فلم يجدوا لى أثرا . فأثبتت رجلا من معارفى فأمرته .
 فاشترى لى دواب وما يصلحنى فدل على « عبد الله العامل » فأقبل فى خيل
 له يطلببنى . فخرجنا على أرجلنا هرابا والحيل تبصرنا فدخلنا فى بساتين
 على الفرات فسبقتنا الخيل على الفرات فسبحنا . أما أنا فنجوت والخيل
 ينابودنا بالأمان ولا أرجع . أما أخى فانه عجز عن التسباحة فى نصف
 الفرات فرجع اليهم بالأمان وأخذه وقتلوه . وأنا انظر اليه وهو ابن ثلاث
 عشرة سنة . فاحتملت فيه ثكلا ومضيت لوجهى فتواريت فى غيضة حتى
 انقطع الطلب عنى وخرجت فقصدت المغرب حتى بلغت أفريقية .

ذلك هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . الذى فر من ظلم العباسيين
 بعد أن استولوا على الملك ومضوا يستأصلون شافه الامويين . فظل يضرب
 فى القفار حتى وصل الاندلس فأقام دولة ضخمة . وكان عمره تسعة
 عشر عاما عندما وصل الى شاطئ الفرات وعندما عبر البحر جاهدا حتى
 وصل الى الشاطئ الآخر فرارا من الرايات السود التى كانت تزمع اختطافه
 . فلما وصل الى اليابسة ظل يضرب فى الارض ، حتى وصل الى افريقيا .
 فعبر فلسطين ومصر حتى نزل بلاط عبد الرحمن بن مصعب الفهرى : أمير
 المغرب . ومنها عبر الى الاندلس فبث فيها دعوة الامويين من جديد فاستجاب
 له الناس والتفوا حوله فكون ذلك الملك العريض . وكان المنصور الد أعدائه
 ولكنه أنصفه من نفسه حين وصفه بصقر قریش .

ولا شك أن صقر قریش كان شخصيه ممتازة حقا . هى التى مكنته
 من الوصول الى هذه الذروة . وأتاحت له القدرة على تحطيم كل عقبة .

وصف بأنه كان مديد القامة نحيف القوام . أصهب خفيف العارضين
 . . له خال فى وجهه . يؤثر لبس البياض ويعتم به . أعطى هيبه من وليه
 وعدوه . يحضر الجنائز ويصلى عليها . ويصلى بالناس الجمع والاعياد .
 ويخطب على المنابر ، ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم .
 وقد شبهه أبو حيان بالمنصور فى قوة شكيمة ومضاء عزمه وفى
 القسوة والصرامة والاجترأ على الكبائر .

ويبدو بالاضافة الى هذا أنه كان قاسيا فى مقاومة الدسائس ، ومرد
 هذا الى نفسيته التى أكسبتها الاهوال الصرامة والقدرة على مواجهة الدماء
 المسفوكه دون وجل . فهو لم يكن يتورع عن الغدر والاغتيال للقضاء على
 خصومه ، بل لقد ذهب فى صرامته الى حد البطش بكثير من أصدقائه
 الذين آووه يوم مقدمه شريدا لا عصبية له .

يقول دوزى مؤرخ الاندلس : « لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره غاليا .
 ذلك الصارم المنتقم الذى لا تأخذه رافة . وأم يبق ثمة زعيم عربى أو
 بربرى يجروا على مواجهته صراحة ، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية .
 ولم يك ثمة رجل خير يرغب فى خدمته . كان هم عبد الرحمن الدائم أن

ينزل العرب والبربر الى الطاعة . وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام
وقد لجأ فى تحقيق هذه الغاية الى جميع الوسائل التى لجأ اليها ملوك
القرن الخامس عشر لسحق الاقطاع ، .

وقد حكم عبد الرحمن الاندلس ثلاثة وثلاثين عاما وأخضع العرب
والبربر واتخذ من قرطبة حاضرة لامارته .

وكان شاعرا جيد النظم . ناثرا فصيح البيان . قوى الترسل . عالما
بالشريعة لقد كانت الاندلس يوم دخلها عبد الرحمن متعبة مجهدة تتطلع
الى زعامة قوية ، والى شخصية ممتازة توحد كلمتها وتأم شملها .

وكان عبد الرحمن هو البطل الذى جدد الاندلس وبعث دولة
الامويين بعد سقوطها فى الشرق .
توفى عام ١٧٢ هـ .

* انت رجل منا آل البيت .

أبو مسلم الخراساني

عبد الرحمن أبو مسلم

شخصية جارفة . نادرة . قلما تمر في التاريخ الا في مراحل متباعدة . استطاع في سنوات قليلة . وفي سن العشرين أن يحدث انقلابا ضخما كان بعيد الأثر في التاريخ الاسلامي كله ، حين نقل الخلافة من بيت الى بيت . والحكم من دولة الى أخرى . فانهزمت العربية الخالصة . وانتصرت الفارسية الجديدة .

اكتشفه « ابراهيم الامام » عندما قدمه اليه « سليمان بن كثير » كبير الدعاة في الدعوة السرية العباسية . وكان يعمل مع ابني معقل العجلي . فلما رآه الامام أسماه عبد الرحمن بن مسلم ، وزوجه ، وقال له « لا يتم الامر الا بذلك كما وجدته في الكتب » ونسبه الى بني العباس .

وهو فارسي . ولد بأصبهان . ورحل في السابعة من عمره الى الكوفة . ولم يلبث ابراهيم الامام ، أن سلمه مقاليد الدعوة في خراسان . وانفذه الى أبي موسى السراج ، والى كبار الدعاة هناك . وكتب له كتابا يعد من أقوى الدعائم في نجاحه :

« يا عبد الرحمن : انك رجل منا آل البيت فاحفظ وصيتي ، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم . وحل بين أظهرهم . فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم . وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم . وانظر الى هذا الحي من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت في أمره . ومن كان من أمره شبهة . ومن وقع في نفسك منه شيء . وان استطعت الا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل . وأبما غلام بلغ خمسة اشبار تنهمه فاقتله . ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه . وإذا اشكل عليك أمر فاكثف به مني » .

والشيخ هو « سليمان بن كثير » وقد قتله أبو مسلم آخر الامر حين لامسه الشك فيه ، واستطاع أبو مسلم بما أوتى من صفاته الشخصية الممتازة أن يصبح كل شيء في هذه الدعوة وأن يوقع مضر في ربيعة . ويستفيد هو من خصومتهم ووقيعتهم . وامكن بذلك أن يضرب ملك بني أمية الضربة القاضية . وأن يغير مجرى التاريخ .

وكان « أبو مسلم » على هذه السن الصغيرة ، غاية في الحزم والهيبة . وقد أعطاه كتاب « ابراهيم الامام » قوة على أن يزيل من طريقه أي شخص . وأن يحقق الفاية التي طبعث عليها نفسه وهي

السيطرة . فقد كان لا يعرف العاطفة ، ولم يكن من الذين يتسمون
أو يلهون . ولم يتورع من القتل على الشبهة ، والفدر بأقرب الناس اليه .
وأتاحت له براعة سياسية الى جانب هذه الشخصية المخوفة ،
كما عرف كيف ينسق بمهارة معارك الحرب .

ويتبع هذا ما عرف عنه من أنه رجل لا مجال للمرأة في حياته . فقد
غلبت مطامع المجد والظفر بالسلطان على نفسه . وقد بلغ غاية غاياتها .
ثم كان المجد سببا في مصرعه .

وكان هذا القصر الحازم الاسمر ، العريض الجبهة ، الفصيح
الطليق البيان ، انتقام القدر لمقتل الحسين من أمية . فقوض دعائمها
وهدم صرحها .

سأله رجل عن السر في السواد فقال له : ان الرسول كان يلبسه ،
ولم يلبث أن أشار الى السيف بأن يقطع عنقه . وبذلك أقام حوله
سياجا من الهيبة والرهبة .

وأخرج أبو مسلم الدعوة العباسية من دور الاعداد بعد أن طال بها
الوقت دون أن تجد قائدا . واستطاع ببراعته أن يفرق الجموع وأن
يزيل من طريق الدولة الجديدة كل الاشواك .

وقيل : انه لما وصل الى خراسان « تشمر للدعوة واخذ القوم
بالبيعة . ووجه كل رجل من أصحابه الى ناحية من خراسان . فكانوا
يدورون بها كورة كورة . وبلدا بلدا في زى التجار . فاتبعه عالم من
الناس عظيم . فواعدهم لظهوره يوما سماه لهم . وولى على كل من
بأيعه فى كل كورة رجلا من أهلها . ويقدم اليهم بالاستعداد للخروج في
ذلك اليوم الذى سماه لهم . حتى جاب جميع ارض خراسان وجبالها
واقصاها وادناها . وبلغ فى ذلك ما لم يبلغه أصحابه من قبله . واستتب
له الامر على جهته وصار من أعظم الناس منزلا من شيعة . حتى كانوا
يتحالفون به فلا يمنون ويذكرونه فلا يملون » .

وقد استطاع أبو مسلم أن يحقق ماتوقعه فيه الذين اختاروه ،
فقد بلغ الذروة وانتصر ، ولكن ما كاد أن يتم هذا الامر حتى اخذ نجمه
في الافول ، فقد انتقم منه الذين جاء بهم الى الملك كأنما يكره الملوك من
يحملهم الى الملك . وقد بدأ ذلك بمرحلة من الدس والوقيعنة انتهت
بقتل المنصور له .

لقد تحول الموقف النفسى بين أبى مسلم من ناحية والسفاح
والمنصور من ناحية أخرى ، بعد أن انتهت المعركة مع خصومهم ، بدأت
معهم . لقد أحس هو أن خاتمة الجهد الضخم الذى بذله قد انتهت
بالنسبة اليه الى لا شيء ، الا أن يرسل لمحاربة خصوم العباسيين واحدا
بعد الآخر ويرسل وراءه من يحصى عليه الفنائم . حتى قال كلمته
المعروفة « أمين فى الدماء خائن فى الاموال » . وظل السفاح والمنصور
يضربان به خصومهم . ويرسلانه فى معركة وراء معركة عليهم يتخلصان
منه .

وسافر المنصور الى مقر ابي مسلم ليأخذ منه البيعة لنفسه بعد أن ولى الخلافة ، فضايقه أن وجد لأبي مسلم نفوذا ضخما بين جنوده . وراى الطاعة المطلقة من اتباعه له . ولمس اثره السحري في نفوس أصحابه واعجاب الناس في كل مكان به كبطل حطم دولة . واقام دولة .

وضايق أبا مسلم كانسيان أن كلا من السفاح والمنصور كان ينظر الى نفسه أنه صاحب الدولة ومقيمها . وانهما لا يعترفان به ولا بحقه من تذليل الملك لهم . اصف الى ذلك أن أبا مسلم كان منتصرا في معركة ضخمة . وكان في سن الشباب الباكر . وأنه قد انتهى من المهمة التي كانت تملأ نفسه . فهنا منطقة فراغ . كيف تملأ ؟ لقد ملأها زهو الانتصار . وامتزج بها الحقد على « العباس » الذي كان متواريا هناك ، ثم جاء اليوم فأصبح خليفة ، له المكان الاول في الدولة كلها . اليس هو الذي سهر وكد وجاهد وقاتل حتى ابلغهم هذا المكان .

أصف الى ذلك اشياء أخرى رآها المنصور من كبرياء أبي مسلم وتعاليه عليه ، كل هذا كون حالة من القلق النفسى والترقب والترصد . وكأنما كان يطمع أبو مسلم أن يقتل المنصور . وكان في خاطر المنصور نفس الرغبة .

وقد انتهى الامر الى غايته التي كان لابد أن ينتهى اليها .

وأفضى المنصور ما في صدره الى أبي مسلم قبل قتله ، وفيه ذلك الحقد الدفين الذي كان يملأ نفسه : لو أرسلنا أمة لفعلت ما فعلت . تتقدمنى في موسم الحج . وتكتب بادئا باسمك . وتخطب اختى .

تلك جرائم أبي مسلم . . الذي كان في الواقع قوة مستقلة بنفسها عن الخلافة ، كان معه الجند . وبذلك كان يخشى أن يحدث أى تغيير . فضلا عن احساسه بأنه هو صاحب الانقلاب .

ويبدو هنا العجب ، فهم الذين جعلوه منهم « آل البيت » ثم سحبوا هذا الاستحقاق بعد أن أتم مهمته .

وفي طريق الموت . . وفي موقفه تنكشف النفوس وتتمرى . وتذهب عنها الصولة وتسقط المهابة . وتبدو الصورة على طبيعتها البشرية العنيفة خالية من زيف المظهر وبريق السلطان . فهذا أبو مسلم بين يدي المنصور قاب قوسين أو أدنى من الموت . وعبارات المنصور المتهمة تلقى عليه . ويحس هو الموت ويراه قريبا منه فتزول عنه كل معالم الجبروت والصولة . وتنمحي كل مظاهر الكبرياء والافتة وتنطوى تلك الصور التي كان فيها « أبو مسلم » طاغية يقتل على الظنة ، وتنحنى له الجباه . ولا يقف أمر دون ارادته الفاتكة . فتراه ذليلا ضارعا . وينجلي من الناحية الأخرى : الفدر والعسف وانتقاص الحقائق الواضحة .

أبو مسلم : لا يقال هذا لى بعد بلائى فى دولتكم وما كان منى . .

المنصور : لو كانت أمة مكانك لجززت ناصيتها • انما عملت ما عملت
فى دولتنا وبسلطاننا ولو كان ذلك اليك ما قطعت فتىلا •

أبو مسلم : يا أمير المؤمنين استبقنى لعدوك •

المنصور : لا أبقانى الله اذن • وای عدو أعدى لى منك •

وسقط أبو مسلم مخرجاً فى دمائه • وانتهت حياته وهو فى
الخامسة والثلاثين من عمره • وانطلوت صفحته على هذه الصورة
الرهيبة • حياة كلها دماء وحروب وخداع وغدر •

وكم قتل أبو مسلم على الظنة أناساً اتهمهم وشك فى تصرفاتهم
وأقذارهم • وكم سهر الليالى يجالذ القدر ليقيم دولة • غاذا ما قامت
به كان هو وقودها •

ومقطع القول فى هذا أن أبا مسلم استأمن فملاه الفرور بالنصر
ولو كان ظل وفياً للذين عمل معهم لمضت الدولة قوية عزيزة وظل له
مكانه ••

❦ ما رأيت ما ترون الا بالاقلام فاجهدوا انفسكم في طلب العلم .

أسد بن الفرات

القاضي الذي قاد اساطيل الفتح . والفقيه العالم انذى تحول الى أمير من أمراء البحر بعد سن الستين . ولد في نجران ، ثم ذهب مع أبيه الى افريقية . ثم عاد الى المشرق حيث زار الحجاز والعراق ومصر فأمضى بها عشر سنوات . تلقى الفقه على مالك بن انس في المدينة . ومحمد بن الحسن في بغداد . واشتهب بن عبد العزيز في مصر . ألف كتابه « الاسدية في الفقه المالكي » وقد كان لرحلته هذه أثرها البالغ في نفسه ومستقبله . فقد احتشد حوله الطلاب في كل مكان . وكان يقول : « ضربنا في طلب العلم آباط الابل . واغتربنا في البلاد . ولقينا العلماء . وغربنا طلب العلم خلف كانون أبيه . ووراء سياج أمه ويريدون بعد ذلك ان يلحقونا » .

وقد كان له بلاغة وبيان . ولكنه كان بالعالم اشهر . فقد كان من الصنف من العلماء الذين يصغر في أعينهم أهل الدنيا . ولا تملك عليهم سطوة السلطان ألسنتهم فيداهنهم .

روى انه دخل هو وأبو محرز على « المنصور » يوم ثار على « زيادة الله » واستولى على القيروان ، وهما قاضيان فقال لهما : أخرجاني . أما تعلمان أن هذا البئس - يعني « زيادة الله » - ظلم المسلمين ؟ أما أبو محرز فخالطه رعب . وقال له : وأنه ظلم اليهود والنصارى . أما أسد بن الفرات فانه ماك جأشه وآثر ان يقول كلمة حق عن أن يسكت امام صولة باطل . فقال له : كنتم أعوانا له قبل هذا الوقت وأنتم وهو على مثل هذه الحال . ولما وسعنا الوقوف عنه وعنكم فذلك بسعنا الوقوف عنه وحده .

وفي عام ٨٢٧ خرج أسد بن الفرات على رأس اسطول متجه صوب صقلية في تسعمائة فارس وعشرة آلاف رجل من المجاهدين . ورسى السفن في ثغر « مازر » في طرف الجزيرة الغربي وهو اقرب ثغورها الى افريقيا ، ثم نفذ على رأس جنده الى شرقي الجزيرة لمقاتلة الروم ، فهزم الروم في معركة كبرى وغنم أسلابهم واستولى على عدة حصون داخل الجزيرة . ثم حاصر سرقوسة من البحر والبر . ووصل الى قلعة الكرات المنيعه فحضر الحصار حولها وبث السرايا . وامتد القتال من سرقوسة شرقي الجزيرة الى بلرم في شمالها الغربي .

ويروى المؤرخون أن « أسدا » هو الذي عرض نفسه ليخرج مع الجيوش الحاربة فلما وثق « زيادة الله » من صدق عزيمته أذن له

بالخروج على أن يكون أمير الجيش في هذه الفزوة . وقد أبقي له اسم القضاء فأصبح قاضيا اميرا . وهو ما لم يجتمع لاحد غيره في افريقية، شأنه في ذلك شأن يحيى بن أكثم حين كان يخرج بالصائفة الى أرض الروم . ومثذر بن سعيد قاضي الامويين بالاندلس .

وكان اسد قد فتح « قوصرة » وهي جزيرة صغيرة واقعة بين تونس وصقلية .

ولقد مضى اسد بن الفرات في غزو صقلية ، غير أن القدر لم يمهله ليتم رسالته فقد استشهد حين ذاك . وقد رآه بعض المعاصرين له وفي يده اللواء فحملوا عليه فقال للناس مشيرا الى جيش العدو قائلا : هؤلاء عجم الساحل . هؤلاء عبيدكم لا نهابهم . وحمل اللواء وحمل الناس معه فانهمز خصومه . فلما انصرف « اسد » رؤى والدم قد سال مع قناة اللواء على ذراعه حتى صار الدم تحت ابطه . وقد كان على ثقة من أنه سيكسر جيش الروم مهما بلغ من الكثرة . وروى انه لما اشتد به الجوع . واضطر هو وجنوده الى اكل لحوم الخيل سعى اليه بعض من طلب منه المودة الى افريقيا فغضب وقال : ما كنت لأكثر غزوة على المسلمين . وفي المسلمين خير كثير . ثم مضى في عزمته ففتح أكثر البلاد حتى استشهد في سرقسطة .

وتعطى وقائع حياة اسد بن الفرات صورة رائعة لشخصية هذا القاضي الذي أحب العلم . وشغف به . وفتح له باب المجد . وآمن بالجهاد حتى وهب نفسه له واندفع يطلب الاشتراك في الحملة المتجهة الى صقلية وهو في سن الستين فوكل اليه الحاكم قيادة الحملة فأبلى بلاء حسنا ، ومضى يجاهد في عزم واصرار حتى ذلت له الصعاب . وتأكد له الظفر . واستشهد وهو يحمل العلم والدم يسيل منه لا يبالي حتى لا يسقط اللواء من يده . وقد وصف نفسه عندما ولي إمارة الحرب بقوله : « والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا أحد ولاية قط . وما رأى أحد من سلفي مثل هذا قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام فاجهدوا انفسكم واتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه وكابدوا عليه واصبروا على شدته » .

وقد توفي اسد بن الفرات شهيدا عام ٨٣٢ م ، ثم أتم المسلمون فتح الجزيرة بعد أن وصلتهم امداد من المجاهدين المفاشرين . واسسوا بها إمارة كانت تابعة لحكومة افريقية . ولبثت الدولة الاسلامية بها زهاء قرنين وأصبحت معقلا بحريا تخرج منه البعث والحمالات فتجوس خلال المياه الايطالية وتصل حتى روما .

* لقد جئناكم بأرضهم .

النعمان بن مقرن

قال عمر قبل غزوة نهاوند : اشيروا على رجل اوله امر هذه الحرب وليكن عراقيا ، فأشاروا عليه به . فبات عمر يفكر ويدبر فلما أصبح الصباح قال : اما والله لأولين أمرهم رجلا يكون اول الأسنة اذا لقيها غدا : النعمان بن مقرن . قال الناس : هو لها ..

وكتب اليه : بلغني ان جموعا من الاعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فاذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وينصر الله بمن معك من المسلمين . ولا تؤتهم وعرا فتؤذهم ولا تمنعهم من حقهم فتكفرهم . ولا ندخلنهم غيضة فان رجلا من المسلمين أحب الى من مائة ألف دينار . فسر في وجهك هذا حتى تأتي «ماه» فاني قد كتبت الى اهل الكوفة ان يوافوك بها . فاذا اجتمع اليك جنودك فسر الى « القيروان » ومن جمع معه الاعاجم من أهل فارس وغيرهم .

وكان « النعمان بن مقرن » من الذين استجابوا للدعوة الاسلامية عندما بزغ فجرها . واشترك في الوقائع كلها مع رسول الله . فلما ارتدت العرب بعد ان لحق الرسول بالرفيق الأعلى كان في مقدمة الفرسان الشجعان الذين حملوا اللواء للدفاع عن الاسلام والدود عنه .

وقد عرف بأنه فارس مقدم لا يعرف التردد ولا الفرار غير متسرع الا لفرصة . كان على ميمنة أبي بكر حين خرج لقتال الذين منعوا الزكاة ، فهزمهم بنى القصة . وكان الى جوار خالد في غزواته .

ولما ولى سعد القيادة كان في المقدمة . برز في القادسية وفي فتح العراق العربي . وأبلى في حروب خوزستان .

وولاه سعد جباية الخراج . وهو يحب الجهاد فكتب الى عمر يطلب منه ان يدفع به في نحر العدو ، فلم يلبث عمر أن كتب الى سعد يقول :

ان النعمان كتب الى يذكر انك استعملته على جباية الخراج . وانه قد كره ذلك ورغب في الجهاد فابعث به الى اهم وجوهك .

وكان « النعمان » من بين أعضاء وفد ساعد الى « يزجرد »

يطلبون اليه الاسلام او الجزية او المناجزة . فقد كان من اهل الراى والسياسة والشجاعة . ويروى انه هو الذى رد على يزديجورد ، حين قال :

ما الذى اقدمكم على هذه البلاد . اتراكم جراتم علينا لما تشاغلنا بأنفسنا .

فوقف يدافع عن الاسلام فى لسان بليغ . وعبارة اخاذة . قال :

« ان الله رحمننا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير . ويأمرنا به ويعرفنا بالشر وينهانا عنه . ووعدنا على أجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدع الى ذلك قبيلة الا صارت فرقتين . فرقة تقاربه وأخسرى تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه الا الخواص . فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث . ثم أمر أن ينبذ الى من خالفه من العرب وبدأ بهم وفعل . فدخلوا معه جميعا . ثم أمرنا أن نبدا بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوهم الى ديننا . وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح . فان أبيتم قأمر من الشر أهون من آخر شر منه ، الجزية . فان أبيتم فالمناجزة . فان أجبتكم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله واقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم . وشأنكم وبلادكم . وان أبيتم بالجزية قبلنا ومنعناكم . والا قاتلناكم » .

ومضى كسرى يناقشه فى أنفة . وهو يجيب عليه فى صرامة وقوة . حتى قال له : ارجعوا الى صاحبكم فأخبروه أنى مرسل له « رستم » حتى يدفنه ويدفنكم فى خندق القادسية . ولم يدعمهم حتى حملهم التراب . ففرح به النعمان وذهب الى « سعد » فرحا يقول : لقد جئناكم بأرضهم .

ولما تلاقى الفريقان واحتدم القتال تحقق النصر للمسلمين وتحطمت مقاومة الفرس واندحروا وفروا .

ثم ولى « النعمان » ولاية « كسكر » فضاقت بها . وكتب الى الخليفة يطلب اليه أن يقذف به فى حومة القتال فما هو وهذه الولاية . لقد كره الإقامة وضجر من الطمأنينة . وأحب أن يندفع فى ميدان الحروب يكابد الاهوال ويجالد الرجال .

واعتزم « يزديجورد » أن يثار للقادسية فجمع قواه ، وتأهب لمعركة فاصلة . وكاد عمر أن يخرج من المدينة ليقف بنفسه فى وجه الفرس . ثم رأى أن يختار رجلا يستطيع أن يواجه هذا الخطر فكان « النعمان » على نحو ماوصفنا فى أول الفصل .

وسار النعمان على تعبئة حتى نزل قريبا من حصون أعدائه . وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات زلزلت الاعاجم فى ثلاثين ألفا يقابلهم خمسون ومائة ألف متحصنين فى بروج ذات منعة .

وهاجمهم القعقاع ورمى المدينة بالنبال وأظهر العزم على اقتحام الاسوار . وثبت لهم القعقاع حيناً ثم أظهر الفرار وولى بجنده مدبرا فخرجوا فى أثره . وتابع القعقاع فراره . وتابع الفرس مطاردته . وخلت

نهاوند من حمايتها ولم يبق بها الا حراس ابوابها ، فلما بعدوا عن المدينة .
ولم يبق لهم مطمع في حماية حصونها ، فوجئوا وقد وقف المسلمون
وثبتوا للقتال .

ولما حان للشمس أن تنحدر نحو المغيب ركب «النعمان» وجعل
يعر على الرايات يشجع الناس ويحرضهم . ودعاهم أن يستعدوا فاذا
كبر ثلاثا حملوا معه وقال فيما قال : « فاذا كبرت الثالثة فاني حامل
ان شاء الله فاحملوا معي . اللهم أعز دينك وانصر عبادك . واجعل
النعمان أول شهيد اليوم على اعزاز دينك ونصر عبادك » .

وكان معلما في وسط الجيش ببياض القباء والقلنسوة فلما كبر ثلاثا
اندفع وفي يده اللواء فانقض على العدو انقضاض العقاب وأخذ يطيح
بالرءوس ويجندل الفرسان . وشد المسلمون حوله . ومضوا يقاتلون
الفرس حتى تصافحوا بالسيوف . وقد سقط من جنود الاعداء عدد
ضخم حتى كادت الارض تميد بالدماء ، وبينما هو يشق طريقه ذلق
جواده في الدماء فصرعه واستجيب دعاؤه واستشهد .

ولكن المسلمين واصلوا الحرب . وحمل القعقاع اللواء وقتل
الفيروز قائد الفرس وأخفى خبر مقتل النعمان عن المسلمين فاندفعوا
في النصر حتى غايته .

وهكذا حقق النعمان أمنيته ومات شهيدا في حومة الوغى . بعد
أن امضى حياته مجاهدا في سبيل نصره الحق .

وهو في جماع صور حياته رمز لهذه الشخصية الاسلامية التي
قدمت نفسها فداء لفكرة وهدف وغاية .

ولقد كان من ذلك النوع المكث الذي لا يسرع الى الحرب حتى
يثق من موقفه فضلا عن فهمه للروح العسكرية وتشبعه بها . وكان الى
ذلك شجاعا مقداما لا يهاب شيئا فيه عزيمة وفيه فداء وفيه ايمان
بالشهادة والموت في سبيل الله ، لا يبالي على أى جنب كان في الله
مصرعه .

وكان بعد نظره ، وسرعة خاطره ، وبراعة تدبيره من العوامل البعيدة
الاثر في بروزه وعلو قدره .

الرجل الذى نقل أسطولا بحريا فوق التلال والهضاب لأول مرة
فى تاريخ الحرب .

محمّد الفاتح

علم من أعلام الفتح استطاع أن يكتب اسمه بحروف من نور
ويسجل فخرا للإسلام عجز عنه المسلمون . وطمعوا فيه . ورغبوا
إليه . منذ منتصف القرن الاول عندما أعد « معاوية » السّواتي
والصوائف لحصار القسطنطينية من البر والبحر . ثم عادت مرات
ومرات خلال سنوات متوالية دون أن تنال شرف هذا الفتح الذى حققه
محمد بعد ذلك بتسع قرون .

ومحمد الفاتح شاب استقبل حياته بأمل ضخم ورغبة ملأت عليه
نفسه هى « فتح القسطنطينية » ، وهو أمر لم يكن يتخيله متخيل لانه
أقرب الى المستحيلات . ولكن محمدا أحال هذا الخيال المستحيل الى
حقيقة نافذة . وفى هذا الحادث وحده نجد شخصية الرجل المفامر
الطموح .

لقد كانت « القسطنطينية » رمز الحضارة الاوربية . وملاذ
الديانة المسيحية . وكان الاستيلاء عليها عنوانا على تحول ، ورمزا على
انقلاب . فمئذ وقعت القسطنطينية فى قبضة الاتراك بدأت صفحة
جديدة من صفحات التاريخ فى الشرق والغرب . وكان محمد هو كلمتها
الاولى .

وهو عند كثير من الباحثين من أعظم صنّاع التاريخ . وقد عرف
محمد الفاتح منذ شبابه بحبه للتفوق وميله للسيطرة والطموح وحسن
معالجة الامور . وكان الاسكندر المقدوني هو الشخصية الاولى فى
تقديره . ولعل توليه الملك فى سن الحادية والعشرين . ومباشرة الحكم
فى حياة ابيه مما جعله اكثر خبرة للامور وتجربة للرجال .

وقد ورث « محمد » عن ابيه الجلد والشجاعة وشدة المراس
ولصبر على المكاره وشفق منذ صباه بأمور الحرب ، ووضع الخطط
الحربية وحصار المدن .

وقد اتاحت له هذه الوراثة مزيدا من كمال الشخصية . فقد كان
ابوه من سلالة آل عثمان . وكانت أمه مسيحية فكانما امتزج الشرق
بالغرب فى كيانه . ولذلك لم يكن متعصبا أو ضيق الافق . وعزف محمد
عن الترف . وأحب الخشونة فى طعامه وملبسه وأخذ نفسه بالعظيم من
الامر . فلم تكن له محظيات . ولم يكن يألف مجلس الندماء . وكثت

العزلة والوحدة حبيلة الى نفسه فظهرت روحه من عوامل الاختلاط
التي عرفتھا قصور الملوك والخلفاء .

ووصف بأنه قمحي اللون متوسط الطول ، متين العضلات ، فارسا ،
طموحا ، سريع البديهة . تعلم عدة لغات أجنبية . وحرص على قراءة سير
العظماء والابطال وخاصة القياصرة .

ولذلك فانه ما كاد يبدأ في حملة القسطنطينية حتى أحكم الخطة .
ودرس مختلف الاحتمالات . ثم كتم اسراره حتى بدأ التنفيذ في قوة
واحكام .

وكانت الحرب مدى شغفه ، حتى كان يسرع الى التعرف لكل
جديد في اساليبها واختراعاتها . وكأنما كانت فكرة افتتاح القسطنطينية
تملا عليه حياته فعاش يحلم بها ويفكر فيها ويرسم لها الخطط .

ولعل ابرع ما في خطته كلها نقل البواخر الحربية الضخمة من بحر
الى بحر . ومن بوغاز الى بوغاز وفق اسلوب لم يعرف من قبل في
الحرب . حتى لقد فاجأ العدو أعنف المفاجأة . فأعجزه عن مقاومة
خطة جريئة عجيبة لم يكن مستعدا لها أو يحسب حسابها .



ولى الخلافة في فبراير ١٤٥١ وهو ابن السلطان مراد . وقد روى
انه عندما علم بخبر موت أبيه ، امتطى جواده وقطع به مائة وعشرين
ميلا في فيافي آسيا الوسطى حتى بلغ الدردنيل ثم عبر الى غاليبولى .

وقد بدأ يحقق فكرته بأن بنى قلعة في منطقة « روميلي حصار »
بعد أن عبر المضيق الى الشاطئ الغربى . وفي ليلة واحدة نقل عشرة
آلاف رجل من عماله وصناعه ليقموا هذه القلعة . وأرسل رسلا في
شتى أنحاء مملكته يدعون كل راشد الى حمل السلاح . وجمع وزراءه
وأعوانه وأعلنهم بعزمه على غزو « بيزنطة » والاستيلاء عليها .

وكان قد درس قلاع القسطنطينية واسوارها المتينة الضخمة .
ومنها سورها الغربى الذى يبلغ طوله خمسة أميال من الحجر الصلب
من فوقها قلاع ضخمة تقوم في صفين أو ثلاثة صفوف وهى التى شيدها
الاباطرة والمتعاقبون صونا لعاصمتهم ورمزا لسلطتهم وبه استطاعت أن
تدوم ما تعاقب عليها من غارات القبائل المتبربرة .

وفكر محمد الفاتح في أن يعد سلاحا جديدا للحرب . فصنع مدفعا
يتدف اكبر قذيفة الى أطول مدى . وقد استطاع صنع هذه المدافع
الضخمة التى أطلق عليها « قذائف الصخور » بعد أن نقل الكتل
الضخمة من الحديد والنحاس من مصانعها في آسيا الصغرى الى حيث
تقوم أمام أسوار القسطنطينية .

وأضج الآلاف من الناس الايام والاسباع والشهور المتعاقبة في
تعبيد الطريق الى المدينة وفى صنع العربات التى تحمل المدافع ، حشد

لجرحها خمسين من الثيران القوية وقد ثقلت في شهور طويلة في تسلق الهضاب والتلال والهبوط الى الوديان الى أسوار القسطنطينية التي شهدت ثلاثين فما من الحديد تنجھ اليها ومضت المدافع تقذف الاسوار فتشتر الغبار ثم تتركها وقد فتحت فجوات بها وامتد الحصار ٥٠ وأرسلت أوربا ثلاث سفن كبيرة لتدافع مع أهل القسطنطينية عن مدينتهم . هنالك بدأ أسطول محمد الفاتح المؤلف من مائة وخمسين سفينة صغيرة يقذف قطع الحديد وكرات النار على المراكب الداخلة الى الخليج .

ولكن محمدا الفاتح رأى أن ذلك كله لا يجدى ففى دفع غارات المغيرين ولا فى كسب النصر الحاسم . لذلك فكر فى هذه الخطة العجيبة التى اذهلت خصومه وادهشت المؤرخين على مر العصور ، فقد رأى أن ينقل أسطوله الواقف فى البحر فوق اليابسة وينزله فى الطرف الثانى من القرن الذهبى .

ولاول مرة ينقل أسطول بحرى فوق التلال والهضاب ، فجاء بكتل ضخمة من الخشب ونشرت الواحا صنعت منها صناديق . ووضع فى كل منها سفينة من سفن الاسطول . وجيء بألوف العمال الذين أخذوا يعبدون الطريق الجبلى المؤدى الى القرن الذهبى مخترقا التلال . وهو فى نفس الوقت يغطى خطته بموالاة مدافعه ضرب أسوار القسطنطينية حتى يباغت العدو بالعمل الخطير .

فاذا كان الصباح نقل الاسطول البحرى وأنزل الى مياه القرن الذهبى وفوجيء العدو بمشاهدة أسطول محمد الفاتح وهو يدق الطبول .

وظل الحصار مضروبا على المدينة ستة أسابيع .

وفى ليلة ٢٩ مايو ١٤٥٣ قرر محمد الفاتح مع رجاله مهاجمة المدينة ، واندفع الجنود الى ثغرة فى الاسوار فنفذوا منها الى المدينة ، ولم تلبث أن سقطت القسطنطينية بين أيديهم . وسقط الامبراطور قسطنطين تحت الاقدام .

ولما دخل محمد الفاتح المدينة اتجه الى كنيسة ايا صوفيا . وقبل أن يدخل بابها سجد لله شكرا ثم حمل حفنة من ترابها ووضعها على رأسه . فلما أتم صلاته ودعاه نهض ودخل الكنيسة وأحاطها مسجدا وجمع فيها رجاله فصلوا صلاة الفتح .

تم الكتاب

الفهرست

الموضوع

تصدير

عمر بن الخطاب

علي بن أبي طالب

خالد بن الوليد

الحسين بن علي

طارق بن زياد

قتيبة بن مسلم

عقبة بن نافع

أبو عبيدة بن الجراح

محمد بن القاسم الثقفي

سعد بن أبي وقاص

المثنى بن حارثة

صلاح الدين الأيوبي

أبو ذر الغفاري

الحسن البصري

منذر بن سعيد

عمرو بن العاص

عمر بن عبد العزيز

معاوية بن أبي سفيان

أبو جعفر المنصور

هارون الرشيد

عبد الرحمن الناصر

الحاجب المنصور

نور الدين الشهيد

صقر قریش عبد الرحمن الداخل

أبو مسلم الخراساني عبد الرحمن أبو مسلم

أسد بن الفرات

التعمان بن مقرن

محمد الفاتح

الصفحة

٥

٧

١٤

١٨

٢٣

٢٧

٣٠

٣٣

٣٦

٣٩

٤١

٤٥

٤٩

٥٤

٥٨

٦١

٦٣

٦٦

٧٠

٧٤

٧٧

٨٣

٨٦

٨٩

٩٢

٩٥

٩٩

١٠١

١٠٤



مطابغ الدار القومية

١٧٧ شارع عبید - روض الفرج

تلفون } ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٤
٤٠٨١٤ - ٤٠٥٨٨ }